الإنسان والكون

في الإسلام

١٩٩٥

توزيع

دار الثقافة للنشر والتوزيع

الانسان والكون

الإنسان والكون
في الإسلام

١٩٨٥

دار الثقافة للنشر والتوزيع

الإهـــــــداء

الى

أبنائي من شباب الجامعات

فهرس

الصفح	
٩	ـدمة البحث
١٣	ـهيــــد
١٩	ـإســـلام والعلم
٢٣	ـنهج البحث الكونى
٤٣	ـــــورة الكون
٥	ـلاقة الانسان بالكر
٣	ـداب الانسان فى علاقته بالكون
٩	ـبت باهم المراجع

To: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

مقـــــــــدمة

يشكو كثير من الناس من أن القيم السائدة في مجتمعاتنا المعاصرة أخذت تهتز بشدة ، وهـــذا راجع في الحقيقة الى طبيعـــة العصر ، فانه يتميز بأنه عصر صراع فكرى وعقائدى حاد ، خصوصا حول قضايا المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية .

وفي مثل هذا الجو من الصراع الفكرى يشعر المواطن في العـــالم الغربي والاســـلامي بحاجة ملحة الى فهم ثقـــافات عصره على اختلافها ، والملاءمة بينها وبين تراثه الديني والحضـــارى الذى نشـــأ في جوه حتى لا يفقد ذاتيته ، خصوصا وانه يحس من اعماق نفسه انه ينتمى الى تراث حضـــارى أصـــيل كان له أكبر الاثر في تقـــدم البشرية ، وانه اذا كان قد تخلف عن الركب بعض الوقت ، فانه قادر على المضى قـــدما الى الامام ليلحق بمن سبقوه على الطريق ..

على انه في هذا اللحاق لا يريد أن يقلد تقليدا أعمى ، وانما يريد أن يحافظ على استقلاليته الفكرية ، ولا مانع لديه من أن ينفتح على كل الآراء والمذاهب المعاصرة ، ولكن مع ضرورة التمييز بين النافع منها والضـــار ، ومع تنمية قدرته دائما على الابتـــكار ، فليس كل ما تنتجه المجتمعـــات في الشرق أو الغرب من افكار صالحا بالضرورة لمجتمعه ، وملبيا لحتياجاته الفكرية والروحية ، ومحققا تقدمه الحقيقي لا الوهمى .

وقد ادت سهولة الاتصال بين شعوب العالم في عصرنا الى غزو فكري لمجتمعاتنا ، فوفدت اليها فلسفات شتى ، منها ما يؤمن بالتفسير المادى للوجود ، فليس ثمة الا المادة وقوانين تطورها ، وما العقل الانساني لا اسمى نتاج للمادة ، والعالم لم يوجد الا اتفاقا او مصادفة ، فلا خلق ولا خالق . ومنها ما يبدأ سيره من ايمان لا حد له بمنهج العلم التجريبي بحيث يجعل معيار الحقيقة التجربة الحسية وحدها ، ومن ثم لا مجال للتفلسف الذى يحاول تجاوز عالم الحس الى ما وراءه ، فقضايا الفلسفة التي تتحدث عما وراء الطبيعة لا معنى لها ، اذ لا يمكن التحقق من صدقها او كذبها . واصحاب هذه الفلسفة يعنون عادة بالتحليل المنطقي للعبارات والالفاظ على اساس ان كل لفظ ليس له ما يشير اليه في عالم الحس زائف ، وبالتالي فان القضية التي يستخدم فيها مثل هذا اللفظ فارغة المعنى . ولو امتد منهج هذه الفلسفة الى نطاق الدين لاصبحت بعض قضايا الدين التي تتحدث عن غيبيات لا معنى لها ، ومن هنا تعتبر هذه الفلسفة منتهية بطبيعة منهجها الى تقويض اركان العقيدة الدينية ، حتى وان لم يعن اصحابها بتحديد موقفهم من الاديان . وثمة فلسفات اخرى من فلسفات العصر تنطلق من القول بان حياة الانسان لا معنى لها ولا هدف منها الى الالحاد . ويرى بعض اصحابها وجود الانسان مجرد مأساة ، وامرا غير مفهوم او لامعقول . ويرى بعضهم الآخر حرية الانسان باطلاق في تحقيق ماهيته ، اذ لا اله يخلق وفق ماهية سابقة ، ولذلك يكون الوجود سابقا على الماهية ، ومآل الانسان الى العدم ، فلا بعث ولا ثواب ولا عقاب . منهم ايضا من يؤكد على عدم الايمان بأى قيمة اخلاقية او حقيقة مؤكدة ، ويتجهون بعنف الى الهدم ، فتوصف فلسفاتهم بوصف العدمية . وجميع هذه الفلسفات الاخيرة في راينا عبثية ، من حيث انها ترى الوجود الانساني مجرد عبث ، وتشاؤمية الطابع . ومن اسف انها شاعت شيوعا غير عادى عن طريق الكتابات الادبية والمسرحية المعاصرة في اوروبا ، وهي كفيلة بالقضاء على اعظم ما انتجته البشرية من حضارة ، لأنها تقتل في الانسان طموحه ، ولا تجعل له هدفا يسعى اليه .

والناس في مجتمعاتنا ازاء هذا الغزو الفكرى ينقسمون الى ثلاثة اقسام ، فمنهم من يركن الى الاتباع والتقليد لكل ما هو وافد جديد دون

وعى أو تفكير حر ، ومنهم من لا يهتم بالموازنة بين ما يفد اليـه وما نشأ عليه ، ويقولون : لا وقت لدينا للعنـاية بمثل هـذه الامور ، ويمضون فى سبيلهم غير مكترثين ، ومنهم من يحيون مشكلة الغزو الفكرى ويعـانونها معاناة حقيقية ، ويريدون ايجاد حل لها ، يكفل عدم ذوبانهم فى فكر الغير ، وضياع شخصيتهم المتميزة .

وفى تصورنا أن الاحتـكاك المستمر بين الاسـلام وفلسفات العصر كالتطورية والماركسية والوضعية والوجودية وغيرها ، سيعمل مع الوقت على ابراز فلسفة للاسلام جديدة ، تنفتح على كل الآراء ، ولكنهـا لا تفقد أصالتها وارتباطها بتراث أصحابها العميق الجذور فى الماضى . ونتيجـة للتقدم العلمى المستمر سيصبح من وظائف هذه الفلسفة الملاءمة بين العلم والايمان على أساس أن العلم لا يتعارض مع الايمان ، والاسـلام نفسه يعين على هذه الملاءمة لانه دين العقل ، ولانه يدعو الى البحث الكونى ، وتسخير خيرات هذا الكون للانسان ، وأن العلم الذى يقودنا الى معرفة الكون يقودنا فى نفس الوقت الى العلم بالله ، ولا تعارض بين العلمين .

وهذا البحث الذى نقدمه للقارىء يسير فى ذلك الاتجاه الذى يجمع بين العلم والايمـان ، وقد سبق نشره فى مجلة «عالم الفكر» الـكويتية «المجلد الاول ـــ العدد الثالث ـــ أكتوبر ـــ ديسمبر ١٩٧٠ م» . وقد رأينا أن نقدمه للقارىء مرة أخرى فى هذه الطبعة ، ونرجو أن يجد فيه ما يشبع حاجته العقلية والروحية .

والله ولى التوفيق .

أول مارس ١٩٧٥ م .

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

تمهيد

الانسان بطبيعته كائن مفكر ، منذ وجد على الارض وهو دائم التفكير فيما حوله ، وسيظل كذلك طالما هو موجود عليها ، فالفكر الانساني لم يتوقف — ولن يتوقف ابدا — عن كل المجالات التي يمكن ان يتناولها بالبحث والدراسة ، وليس من المتصور مستقبلا ، مهما تقدم العلم ، ان يزعم الانسان انه احاط بكل شيء علما ، لان الكون اوسع من ان يحيط به عقله ، وهذه الحقيقة نفسها هي وراء تقدم العلم ، فلو كانت الحقائق العلمية ثابتة ومتناهية لوقف التقدم العلمي عند عصر معين او نظريات معينة .

ونحن لا نقول مع سارتر : «ان الانسان محكوم عليه بأن يكون حرا» (١) ، وانما نقول ان ما هو اكثر حقيقة «أن الانسان محكوم عليه بأن يكون مفكرا» ، وما دام الانسان قد حكم عليه بأن يكون مفكرا ، فسيظل يتساءل بين الحين والحين عن علاقته بهذا الكون ومصيره .

والانسان هو هو لم يتغير ، كل ما في الامر أنه كان قديما ينزع الى التفسيرات الميثولوجية للظواهر الكونية عن طريق الربط بين هذه الظواهر وبين قوى خفية او ارواح خيرة او شريرة ، يتخيلها دون ان يكون لوجودها حقيقة ، وهو الآن يستعين بنظريات العلم في تفسير هذه الظواهر نفسها تفسيرا واقعيا ، ولكنه يحس من ناحية اخرى ان العلم لا يفسر له كل شيء ، وان ما يعرفه عن الكون لا يزال ادنى بكثير مما لم يعرف ، فانسان العصر في الحقيقة ليس اقل من الانسان القديم اطلاقا لعنان خياله ، ولكن خياله

---

(1) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant, P. 638.

في هذه المرة ـــ اذا صح التعبير ـــ خيال علمي ينطلق من حقائق العلم الى آفاق المجهول الواسعة .

وهنا قد يتساءل البعض : هل ستستطيع النظرة الفلسفية الكلية الشاملة للوجود ان تصمد في هذا العصر امام الزحف العلمي بعد ان وطأ الانسان بقدميه سطح القمر؟

واجابتنا على ذلك هي اننا نتوقع ان تقوى هذه النظرة الفلسفية عما كانت عليه من قبل . ذلك ان البشرية قد دخلت عصرا جديدا ابرز ما يميزه ايمان لا حد له بالعلم والتكنولوجيا ، وازدياد في ثقة الانسان بنفسه في مواجهة الطبيعة ، واعتداد بعلمية التفكير في شتى نواحي الحياة الانسانية ، ومن هذا المنطلق ستنشأ فلسفات جديدة ، ولكنها ستحتاج الى مجهودات غير عادية تبذل لتنوع العلوم وازدياد الوقائع العلمية بشكل يفوق تصور العقل ، فهذه الوقائع تتضاعف يوما بعد يوم بحيث يصعب على اى مفكر ان يلاحقها ، واى فلسفة نظرية مستقبلة لا تستند الى وقائع العلم منظورا اليها نظرة كلية شاملة لن تجد قبولا .

ومن المتوقع ان يتناول المفكرون مستقبلا قضايا لم يكن يهتم الناس بها كثيرا من قبل ، فبعد ان كان الناس في القرن الماضي واوائل هذا القرن يوجهون اهتمامهم الاساسي الى الواقع المادي المشاهد ، وتطور الكائنات الحية على هذه الارض ، خصوصا بعد اعلان دارون نظريته في التطور ، فان الجيل المعاصر والاجيال التي ستليه ستوجه اهتمامها الى الكون الخارجي ، وستتساءل عن حدوده وابعاده ، وامكان وجود كائنات اخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجي يتناهى او لا يتناهى ، وهل هناك امكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الاخرى ، وهل لا يوجد في هذا الكون الا الانسان فقط؟ كل هذه تساؤلات اصبحت تلح على الانسان المعاصر بعد ان نجح في الوصول الى القمر .

وصحيح ان مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدد الا العلم ولكن الانسان لن ينتظر حتى يجيب العلم عن كل تساؤلاته ، وعندئذ سيلجأ اما الى الاستدلال العقلي ، فيضع امامه نتائج العلم ليستنبط منها بنظرة

كلية شاملة اجابات على تساؤلاته تلك قد تصبح بعد حين بمثابة فروض جديدة يبدأ العلم منها سيره التي اكتشاف آفاق أخرى مجهولة ، أو سيلجأ الى الخيال لفترة طويلة مقبلة ، وسنجد كتابا ومفكرين يطلقون العنان لخيالهم فى شأن الكون ، بل أن بعض العلماء سيكثرون من الفروض العلمية ولكن آراء أولئك وهؤلاء ستكون أدخل فى باب الفن والادب منها فى باب العلم .

مهما يكن من شيء ، فان الفلسفة بنظرتها الكلية الشاملة ، والأدب والفن بما يوحيان به من المعانى والافكار ، لن تفقد جميعا أهميتها فى عصر العلم ، بل قد تعين العلم ذاته على مواصلة السير فى طريق التقدم .

ولعله من الملاحظ انه مع تقدم سير العلوم الكونية نحو اكتشاف آفاق جديدة مجهولة ينشط دعاة المادية مؤكدين للناس وجوب النظرة الى كل تراث دينى على انه لا مكان له فى هذا العصر . وقد ادى ذلك فى مجتمعاتنا العربية والاسلامية الى نوع من الصراع — الذى لا مبرر له — بين قيم تراثنا الدينى والحضارى والقيم الجديدة الوافدة التى يؤكد عليها أولئك الدعاة . ومثل هذا الصراع ينشأ فى رأينا من عدم التعمق فى فهم طبيعة الاسلام ، والانسياق بدون وعى وراء فلسفات العصر المادية ، وليس من شروط التقدم العلمى أن يقترن بالالحاد ، كما ان الالحاد فى ذاته ليس دليلا على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الاسئلة التى يثيرها عقل الانسان الآن فى مجتمعاتنا ، حين يحاول التوفيق بين الاسلام وروح العصر الذى يعيش فيه ، هذه الاسئلة الثلاثة :

(أ) العلم كما نرى الآن يكشف من أسرار الكون ما لم يكن يخطر على بال أحد من السابقين ، والفضل فى ذلك يرجع الى منهجه الذى التزم به ، فهل الاسلام متفق مع العلم روحا ومنهجا ، وما هى مظاهر هذا الاتفاق؟

(ب) اذا كان العلم الحديث قد ساعد ، بما وصل اليه من نتائج فى مجالات شتى ، على تكوين صورة معينة عن هذا الكون ، كما اثبت قدرة

الإنسان على تسخير ما فيه من قوى طبيعية وخيرات مادية لمنفعته الخاصة ، فالى اى حد تتوافق هذه الصورة مع تلك التى يمكن أن نستخلصها من المصدر الاول للاسلام ، وهو القرآن الكريم ، عن الكون والانسان؟

(ج) اذا كان العلم يصاحبه الآن كما نرى ايمان شديد بالمادة وغرور يجامح بامكانيات الانسان ، فما هى قيم الاسلام الروحية التى تحد من اخطار ذلك؟

لقد اردنا لبحثنا هذا أن يكون محاولة للاجابة عن هذه الاسئلة ■ وفيما يلى بيان ذلك ■

الإسلام والعلم

لو انك نظرت الى العلم نظرة فاحصة لوجدت انه فى اساسه خلق ، فالعالم يكتسب معلوماته وفق آداب معينة ، وهى ما يعرف بقواعد المنهج العلمى ، فالعلم ليس معلومات بقدر ما هو طريقة او منهج لتحصيل هذه المعلومات ، وهو بهـذا الاعتبار «قيمة» من القيم ، اذا آمن بهـا المجتمع كاسلوب فى الحياة ، فان هذا المجتمع يحقق تقدمه الحضارى المنشود ، واذا لم يؤمن بها اصبح افراده فريسة للاوهـام والخرافات ، ولم يحققوا لمجتمعهم اى تقدم مادى او روحى .

وقيمة العلم بهـذا المعنى قيمة إسـاسية فى الاسلام ، فهو يجعل التفاضل بين الناس فى المجتمع على اسـاس منه ، لانه اساس كل عمل ناجح او سلوك فاضل . والتقوى — التى هى ايضا من اسس التفاضل بين الناس فى المجتمع — هى نفسها مردودة الى العلم باحـكام الدين ، فرجع التفاضل بين الناس مطلقا الى العلم .

يقول تعـالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر آية ٩) . ويقول تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات» (سورة المجادلة آية ١١) .

وقد نبه الاسلام الناس الى ان العلم لا يقف عند حد معين ، وقد كان الناس قديما يعتقدون ان حقائق العلم ثابتة حتى اثبت علماء مناهج البحث فى العصور الحديثة ان نتائج العلوم احتمالية ، اى ان الصدق فيها احتمالى قابل للتغيير ، وهذا يفسر لنا التقدم العلمى المستمر ، وهـذه المعانى كلها متضمنة فى قوله تعالى : «وقل رب زدنى علما» (سـورة طه آية ١١٤) ، ومن ثم اصبح واجبـا على المسلم ان يستزيد من العلم يوما بعـد يوم ، فمسيرة العلم لا تتوقف ابدا .

ومما له دلالة عميقة على ان العلم فى الإسلام على درجة قصوى من الاهمية أن اول ما نزل من القرآن على الرسول (ص) هو قول الله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم» . (سورة العلق ، آية ١ — ٥). ولهذا نجد الرسول (ص) يجعل فداء من يقرأون ويكتبون من أسرى بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من ابناء المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة .

وشرط العلم فى الاسلام أن يكون نافعا ، فقد كان الرسول (ص) يستعيذ من شر ما لا ينفع من العلم ، كما يستفاد ذلك من دعاء مأثور عنه يقول فيه : «اللهم انى اعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لاتشبع ، ومن علم لا ينفع» .

والمقصود بكون العلم نافعا فى الاسلام أن ينتفع به الفرد والمجتمع ، وقد روى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى ابى بكر بن حزم يقول : «انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه فانى خفت دروس العلم (أى ذهاب اثره) وذهاب العلماء ، وليفشوا (أى العلماء) العلم ، وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا (١)» .

من هذا كله تتبين لك مكانة العلم فى الاسلام ، فهو قيمة اساسية من قيمه ، من شأنها كشف مجهول او استكناه معقول من أجل خير الفرد والمجتمع ، واذا كان الامر كذلك ، فالاتفاق بين العلم والاسلام ظاهر ، ولا مجال للقول بالتعارض بينهما .

---

(١) الحسيانى : تيسير الوصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

منهج البحث الكونى

ونحن لو نظرنا الى القرآن الكريم نظرة فاحصــــة متأنية لوجدنا انه يوجه العقل البشرى الى استخدام منهج متكامل فى البحث فى الكون (٢) .

(٢) لعله من المفيد فى بداية بحثنا ان نحدد مصدر اصطلاح «الكون» من القرآن الكريم ومعانية عند مفكرى الاسلام :

واول ما نلاحظه ان القرآن الكريم يشير الى ان التكوين ـــ وهو اخراج المعدوم من العدم الى الوجود ـــ صفة الله تعالى ، وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من اجزائه لوقت وجوده على حسب علمه وارادته (التهـــانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «التكوين») . والتكوين مشار اليه فى قول الله تعالى : «اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون» (ســـورة مريم ، آية ٣٥) . ومعنى ذلك ان الله يحكم بكون هـــــذا الامر فيكونه (ابن حزم ، الفصل ، بهامش الملل والنحل للشهرستانى ، القاهرة ، جـ ٣ ، ص ٥٢) .

ويرى المتكلمون ان الكون مرادف للوجود (التهـــانوى : كشـــــاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «الكون») ، وقد يستخدم اصطلاح «العالم» ايضـــا ويشـــــار به الى مجموع اجزاء الكون ، اى الى مجموع المخلوقات

ويرى اهل التحقيق ، كما يقول الجرجـــانى ـــ ولعله يقصـــــد بهم الصوفية من اصحاب وحدة الوجود ـــ ان الكون عبارة عن وجود العالم كله من حيث هو عالم لا من حيث انه حق . اما اهل النظر فى الفلاسفة فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ، وهو بمعنى المكون عندهم . (التعريفات مادة : «الكون»)فالكون بالمعنى الذى يمكن ان يستخلص من التعريفـــات الســـابقة هو مجموع ما تكون بالارادة الالهيـــة فى الزمـــان والمـــكان من الموجودات على اختلافها بعد ان لم تكن موجودة . ولهذا المعنى ما يماثله فى التراث الفلســــــفى الاوروبى ، فان لفظ «كون» « Universum » يشير الى مجموع الاشياء (Summa rerum) ، أو مجموع ما يوجـــد فى الزمان والمكان . وعند الفيلسوف ليبنتز ايضا هو جملة الاشياء الموجودة ، واذا كان ثمة عوالم يمكن أن توجد فى أزمنة مختلفة وامكنة مختلفة ، فانه يمكن اعتبارها جميعا عالما واحدا ، أو ان شئت كونا (Theodicée, 1.8) وقـــد يطلق الكون مجـــازا على العـــالم المرئى (Le monde visible) (أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الاســـــلاميون) . وقـــد يعتبر الـــكون (Univers) مطلقا على حين يعتبر العالم Monde نسبيا :

Comte (A) ; polit. positive, 1,348

اما بالنسبة لنظرية النســـبية عنـــد اينشتين فان الكون هو مجموع الاحداث المتميزة بارتباطها الزمكانى (نسبة الى زمان ـــ مكان) ، انظر فى هذه المعانى وغيرها :

Lalande ; Vocabulaire technique et Critique de la Philosophie. Art ; « Univers »

ولهذا المنهج خطوتان : احداهما يطرح فيها الانسان جانبا آراءه السابقة عن الكون ، او ان شئت قلت : يطرح فيها التقليد ليتحرر فكره من قيوده ، ويكون اكثر استعدادا للبحث الموضوعي ، والثانية يكون بها صورة عن الكون ، وعن علاقته به ودوره فيه .

فلنشرع في بيان الخطوة الاولى :

يدعو القرآن الكريم الانسان بادىء ذي بدء الى طرح التقليد ، وتحرير الفكر من الآراء والمذاهب السابقة الموروثة ، وفي ذلك يقول تعالى : «واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» (سورة البقرة آية ١٧٠) .

وينعى القرآن على اولئك الذين الغوا اشخاصهم وعقولهم فعبدوا الاحبار والرهبان بمثل قوله تعالى : «اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله» (سورة التوبة ـ آية ٣١) .

ويعير القرآن اولئك الذين عطلوا حواسهم وعقولهم وركنوا الى التقليد الاعمى بانهم كالانعام ، بل هم اضل سبيلا ، فيقول تعالى : «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون» (سورة الاعراف ـ آية ١٧٩)

ويقول تعالى : «ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» (سورة الانفال آية ٢٢) .

وجعل القرآن العلم وحده ـ لا التقليد ـ السبيل الموصل الى ما يعتقده الانسان ويسلك وفقه ، كما يشير اليه قوله تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا» (سورة الاسراء آية ٣٦) .

وكثيرا ما تحدى اولئك المقلدين للمعتقد البالطة الموروثة بمثل قوله تعالى : «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين» (سورة البقرة آية ١١١) . وقوله تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (سورة الانعام آية ١٤٨) .

وكان من بين التصورات الكونية والمعتقد المنحرفة عند العرب في الجاهلية تالية الكواكب ، وعبادة الاصنام ، وتعديد الالهة ، والايمان بالدهر ، وانكار الروح والبعث ، وما الى ذلك . فقد كان العرب — خصوصا في جوف الجزيرة العربية — يعبدون الاصنام ويقدسونها ويقدمون اليها القرابين ، وهذا هو ما يعرف بالوثنية . وكانت في الكعبة اصنام لجميع القبائل ، وكبير الاصنام فيها الصنم المعروف بـ «هبل» . وكان من اصنام العرب ايضا اللات والعزى ومناة . ومن العرب كذلك من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وهناك قبائل اخرى كان يتوجه بعضها بالعبادة الى المشترى ، او الى الشعرى ، او الى عطارد (٤)

ولعل اولئك العرب لم يكونوا يتصورون الاصنام خالقة لهذا الكون ، وانما كانوا يؤمنون بالله خالقه ، والى هذا يشير صاعد الاندلسي بقوله : «وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة لله تعالى ، وانما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والاصنام الممثلة بها في الهياكل لا على ما يعتقده الجهال بديانات الامم وآراء الفرق من ان عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي **الخالقة العالم** ، ولم يعتقد قط هذا الراي صاحب فكرة ، ولا دان به صاحب عقل ، دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » سورة الزمر آية ٣ » (٥)

على انه يجب التنبيه الى انه ليس من الصواب ان يصف صاعد اولئك العرب بانهم موحدة لله ، لان التوحيد الحقيقي لله ينتفي معه اتخاذ الوسطاء والشركاء . واذا كان العرب قد عظموا اوثانهم وعبدوها لتقربهم الى الله زلفى ، فان هذا من قبيل الوثنية المشركة التي حاربها الاسلام حربا لا هوادة

---

(٤) انظر في تفصيل هذا : صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، المكتبة الحيدرية بالنجف ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م ، ص ٥٦ — ٥٧ .

(٥) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

فيها ، فالتوحيد الحقيقي هو الذي اشار اليه القرآن على لسان انبيائه في مثل قوله تعالى : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » (سورة الاعراف ـ آية ٥٩) .

ومن هنا كان العرب في جاهليتهم منحرفين في عقيدتهم عن التوحيد وكانت نظرتهم الى الكون ـ حتى مع الاقرار بوجود خالق له ـ نظرة تدل على سطحية في التفكير ، ولا تخلو من طابع اسطوري يتمثل في الاعتقاد بان الاصنام والكواكب تضر وتنفع ، ولذا يتوجه اليها بالعبادة .

وكذلك كان كثير من العرب في الجاهلية ـ خصوصا داخل الجزيرة ـ تسودهم نزعة مادية شكية ، ومن شان هذه المادية ان تحول بينه وبين قبول الافكار الدينية ، فكانوا ينكرون مثلا النبوة والبعث لايمانهم بالدهر ، فعرفوا لذلك بالدهرية (٦) .

---

(٦) يذكر المستشرق دي بور في كتابه «تاريخ الفلسفة في الاسلام» ان مذهب الدهرية zurwanismus من زرفان ، «زروان = دهر» من ديانات الفرس القديمة ، وفيه الغيت النظرة الاثنينية للكون (Dualismus) ، وذلا بان جعل الزمان الذي لا نهاية له «زرفان = دهر» هو المبدأ الاسمى واعتبر هو عين القدر والفلك الاعظم او حركة الافلاك «تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢ ـ ١٣» ، وربما عرف العرب شيئا من هذا المذهب عن طريق اتصالهم في الجاهلية بالفرس . وقد عني متكلمو الاسلام بالرد على هذا المذهب الذي اصبح مع مرور الزمان في نظر المسلمين مساويا لانكار الالوهية والحياة الاخرى او القول بالمادية مع انكار الخالق والقول بقدم العالم «تعليق الدكتور ابو ريدة ، نفس المرجع ، ص ١١٩ ـ ١٢٠» . وقد وجدنا لابن رشد كلاما عن الدهرية يصفهم فيه بانهم جحدوا الصانع ، ومثالهم كمثل من يرى المصنوعات فلم يعترف بان مصنوعات بل ينسب ما فيها من الصنعة الى الاتفاق والامر الذي يحدث من ذاته «الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤٩» ، وهو الذي يذكره ابن رشد يذكرنا بآراء بعض الفلاسفة الماديين في العصر الحاضر .

وقد صور القرآن عقيدتهم في قوله تعالى : «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سورة الجاثية ـ آية ٢٤) .

ويقول صاعد الاندلسي مبينا موقف القرآن من الدهرية «وجاء نص القرآن بمخالفتهم «اي الدهرية» في البعث والنشور ونبوة محمد «ص» ، فكان جمهورهم ينكر ذلك ، لا يصدق بالمعاد ، ولا يقول بالجزاء ، ويرى ان العالم لا يخرب ولا يبيد ، وان كان مخلوقا مبتدعا»(٧) .

والواقع ان نظرة الدهرية الى الانسان نظرة مادية خالصة فهي تنظر اليه من خلال واقعه المادي فقط ، وتنظر الى الكون على انه وان كان حادثا مخلوقا الا انه ازلي لا يفنى ولا يبيد ، فليس ثمة حاظا الا الدهر او الزمان ، وليس هناك من بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

ولم تكن هذه النظرة عندهم وليدة فلسفة او تفكير منظم ، وانما هي مجرد انطباع عن الكون يدل على سذاجة في التفكير .

ومن هنا وجدت الدعوة الاسلامية صعوبة كبيرة في الانتشار اول الامر لما كان موجودا عند العرب من هذه المعتقدات والآراء المادية ، ولما كان مقترنا بها من عناد شديد وميل الى الجدل وعدم التصديق بسهولة ، وهذا يفسر لنا لماذا طولب الرسول «ص» بخوارق العادات ، على نحو ما يشير اليه قوله تعالى : «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا . او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا» «سورة الاسراء ـ آية ٩٠ ـ ٩٣» .

ولم يكن طلب خوارق العادات من الرسول «ص» على هذا النحو

---

(٧) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

الا عنادا او صدا عن الدعوة ، فالقرآن نفسه قد انطوى على الآيات الناطقة بصدق الرسول «ص» فيما جاء به وصلاح دعوته للفرد والمجتمع ، ولو أن اولئك المعاندين حرروا عقولهم من اوهامها ، ونظروا الى القرآن نظرة عقلية ، لما طالبوا الرسول «ص» بالآيات أو الخوارق ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : «وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» «سورة العنكبوت آية ٥٠ — ٥١» .

وقد حارب الرسول «ص» فيما حارب من اعتقادات الجاهليين التنجيم والكهانة والعرافة ، وهى من مظاهر بدائية التفكير التى تتعارض مع العلم الصحيح . فقد نهى الرسول «ص» نهيا صريحا عن اتيان الكهان والعرافين(٨) الذين يزعمون لانفسهم قدرة على الاخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، وعلى معرفة الاسرار ومطالعة عالم الغيب ، كما ابطل «ص» الايمان بالغيلان(٩) .

وما له دلالة فى هذا الصدد ايضا ان الرسول «ص» نهى عن الربط بين ظواهر الطبيعة وبين اى اسباب وهمية لا تمت اليها بصلة(١٠) ،

---

(٨) انظر : الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم بتحقيق محمد ناصر الدين الالبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت ، الحديث رقم ٣٣٣ فى النهى عن اتيان الكهان ، ورقم ١٤٩٦ فى النهى عن اتيان العراف .

(٩) مختصر صحيح مسلم ، الحديث رقم ١٤٨٩ ، يقول المحقق : «قال جمهور العلماء : كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات ، وهى جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتغول تغولا ، أى تتلون تلونا ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فابطل النبى «ص» ذلك» .

(١٠) قارن هنا ردود ابن حزم الاندلسى على أصحاب التنجيم والسحر وعلى أولئك الذين يتصورون الكون تصورا ميثولوجيا وذلك فى الفصل ، جـ ٥ ، ص ٢ وما بعدها ، جـ ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها ، وهى تدل على علمية التفكير التى يمكن أن تستمد من أصول الاسلام .

فيوم توفى ابنه ابراهيم حدث كسوف للشمس ظنه الناس بمعجزة تحدث لهذه المناسبة ، فقال «ص» : «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» .

هذا ، وقد ذكر القرآن الكريم طائفة من الديانات السماوية وغير السماوية التى عرفها العرب فى جاهليتهم ، والتى انحرف بها أصحابها عن التوحيد الصحيح الى ألوان من الشرك والوثنية ، يدلنا على ذلك قوله تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد» (سورة الحج آية ١٧» . وقوله تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم» «سورة البقرة — آية ٦٢» .

وتعرض القرآن لذكر مثل هذه الديانات والمذاهب لابد وان يثير عند المسلم تساؤلات كثيرة حولها ، وحول الفرق بين كل منها وبين العقيدة الاسلامية .

ولما كانت تلك الديانات والمذاهب لها تصوراتها للكون وعلاقة الانسان به ، فانه يمكننا القول بأن القرآن قد فتح أمام العقل بابا واسعا للنظر فى الكون نظرة أساسها المقارنة بين ما جاء به وما جاءت به تلك الديانات والمذاهب القديمة .

والقرآن يلجأ دائما الى الحجة العقلية فى الرد على المخالفين لعقائده وتفنيد دعاواهم . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد — على سبيل المثال لا الحصر — الى بعض ردود القرآن على مخالفيه :

فمن ذلك رده على مؤلهى الكواكب من الصابئة بمثل هذه الآيات التى تصور حال ابراهيم عليه السلام حين نظر الى الكون واهتدى الى وجود خالق له بعقله ، وهى :

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما افل قال لا أحب الآفلين »

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكو من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر . فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين» «سورة الانعام ٧٥ ـ ٧٩» .

وهذه الآيات الكريمة لا تصلح فقط للرد على مؤلهة الكواكب ، وهي ـ في رأي الفيلسوف ابن رشد ـ تشير الى علم خص الله به ابراهيم عليه السلام ، وهو علم النظر في الكون ، واعتبار الموجودات فيه بالعقل(١١) .

ويرد القرآن كذلك على من يعتدون آلهة (١٢) بمثل قوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» «سورة الانبياء آية ٢٢» .

ويرى بعض المتكلمين أن هذه الآية انما تشير الى الدليل العقلي المعروف عندهم بدليل التمانع ، ومؤداه : أنه لو كان للعالم صانعان ، فعند اختلاف هذين الصانعين ، كأن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه أو يريد أحدهما احياءه والآخر اماتته ، فاما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما .

---

(١١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القاهرة ١٣١٠ هـ ، ص ٢ ص ٣ .

(١٢) كانت هناك قديما مذاهب تعدد الآلهة ، أبرزها مذاهب المجوس في فارس على اختلاف صورها ، وكانت هذه المذاهب تنطوي على القول بأصلين اثنين مدبرين للعالم : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، أو يزدان وأهرمن . وقد عرض كتاب الفرق من المسلمين لهذه المذاهب بالرد والنقد انظر منها ، الشهرستاني ، الملل والنحل ، القاهرة ١٣١٧ هـ ، بهامش الفصل لابن حزم ، جـ ٢ ، ص ٧٢ وما بعدها . وانظر ايضا ردود ابن حزم على هذه المذاهب في الفصل ، جـ ١ ص ٣٤ وما بعدها .

والاول ممتنع ، لانه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع ، لانه يلزم خلو الجسم من الحركة والسكون ، ويستلزم ايضا عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون الها .

واذا حصل مراد احدهما دون الآخر كان هذا هو الاله القادر ، والآخر عاجزا لا يصلح للالهية(١٢).

يريد القرآن اذن لعقل الانسان ان يفكر وان يستنبط من انتظام امور العالم وحدة صانعة ، فتدبير هذا الكون لا يكون لالهين او اكثر لما يترتب على ذلك من الاختلال فيه . والى هذا المعنى الاشارة ايضا في قوله تعالى : «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون» «سورة المؤمنون آية ٩١» .

ويرد القرآن كذلك على من ينكرون البعث ، او بعبارة اخرى ينكرون ان يكون لوجود الانسان في هذا الكون غاية ابعد لا تتحقق الا في حياة اخرى بعد هذه الحياة ، ويخاطبهم بنوع من الاستدلال المباشر ، وهو انه ما دمتم قد سلمتم بأن الله خلق الانسان اول مرة ، فمن التناقض ان لا تسلموا بانه قادر على خلقه مرة اخرى ، فالله لا يكون خالقا وغير خالق في آن واحد ، ثم اي الخلقين اصعب ، خلق السماوات والارض ام خلق الانسان ؟ كل هذا خطاب صريح للعقل يتبين من قوله تعالى :

«أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم. انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون» «سورة يس آية ٧٧ — ٨٣» .

---

(١٢) شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية ، المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٠ .

نخلص مما سبق الى القول بأن القرآن الكريم اراد ان يطهر العقول من الاعتقادات الباطلة الموروثة التى سبقت نزوله كالتصورات الميثولوجية التى تفسر الكون تفسيرا اسطوريا ، وكالوثنية والشرك وعبادة الافراد وتعدد الالهة ، وتاليه الدهر او الطبيعة ، وانكار الغائية فى الكون وفى حياة الانسان ، وانكار البعث وما الى ذلك .

فاذا تخلص العقل الانسانى من مثل هذه العقائد والتصورات الباطلة التى لا يقوم عليها دليل او برهان ، استطاع ان يقبل متحررا من كل قيد على النظر فى الكون نظرة موضوعية فاحصة يتوصل منها الى الايمان بوجود خالق له ، والى فهم صلته بهذا الكون وبخالقه ، ورسالته فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا يقودنا الى الكلام عن الخطوة الثانية فى المنهج الذى يهدينا القرآن اليه ، وسنحاول ان نلقى فيما يلى مزيدا من الضوء عليها :

• • •

الخطوة الثانية فى منهج البحث الكونى تتمثل فى اصطناع الاستدلالين القياسى والاستقرائى .

على انه يجب ان ننبه بادىء ذى بدء الى ان القرآن ليس كتابا فى المنطق ، ولكنه يحتوى على الاصول العامة للدلائل العقلية ، اما تفصيلاتها فليس من وظيفة القرآن ان يتعرض لها ، ويكفى القرآن انه ينبه الى مثل تلك الدلائل الاجمالية ليمضى العقل البشرى بعد ذلك الى وضع تفاصيلها وكشف قوانينها وطرق استخدامها .

ومما يلاحظه القارىء للقرآن ان الخطاب فيه موجه اساسا الى العقول السليمة باوضح استدلال وايسره ، والى القلوب الصافية بابلغ بيان واوجزه . ولا يعلو عليه فى هذا شىء مما كتب الفلاسفة والمفكرون على اختلاف بيئاتهم وازمانهم ، بدليل ما احدثه من الاثر الفكرى الهائل فى حياة البشرية منذ نزول الوحى به الى اليوم .

وقد فطن الى ذلك كبار المشتغلين بالفلسفة والمعقولات من المسلمين

فذكروا انه قد انطوى على مختلف أنواع الحجج والبراهين بحيث لا يمكن ان يزاد عليه فى هذا شيء ، ومن هؤلاء الامام الغزالى اذ يقول : «واول ما يستضاء به من الابواب ، ويسلك من طريق النظر والاعتبار ، ما ارشد اليه القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان»(١٤) .

ويقول الامام فخر الدين الرازى ، احد ائمة الاشعرية من المتكلمين ، فى كتابه «الاربعين» فى الكلام : «اقر الكل بانه لا يمكن ان يزاد فى تقرير الدلائل «العقلية» على ما ورد فى القرآن»(١٥) .

والحقيقة اننا لو نظرنا الى القرآن نظرة متانية لوجدنا انه ينبه العقول الى استخدام انواع الاستدلال العقلى المختلفة ، مباشرا كان او غير مباشر فهو كما يدعو الى استنباط نتيجة من مقدمة او مقدمات ثبتت صحتها فى معرض الاستدلال على العقائد النظرية ، (انظر الايات من آخر سورة يس آية ٧٧ — ٨٣) نراه يدعونا ايضا الى استخدام المشاهدة الحسية واستقراء الجزئيات من عالم الطبيعة ليصل بنا الى معرفة القوانين العامة التى تسير هذه الطبيعة بمقتضاها .

فمن الآيات التى تدل على استخدام القياس العقلى قوله تعالى : «فاعتبروا يا أولى الابصار» (سورة الحشر — آية ٢) .

ويرى الفيلسوف ابن رشد ان الاعتبار المشار اليه فى هذه الآية هو القياس بنوعيه ، العقلى والفقهى (١٦) . فكان الآية اذن تأمرنا على سبيل

---

(١٤) احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، جـ ١ ، ص ٩٣ .
(١٥) بدر الدين الصنعانى : ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان ، ص ١٧ .
(١٦) القياس لغة : التقدير ، يقال قست النعل بالنعل اذا قدرته وسويته ، وهو عبارة عن رد الشيء الى نظيره (تعريفات الجرجانى ، مادة «القياس») والقياس عند المناطقة اصطلاحا هو قول مؤلف من قضايا اذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر . ومن امثلة القياس العقلى قولنا : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حادث ، فلزم ان كل جسم حادث ، ومن امثلة القياس الفقهى قولنا : كل نبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام ، فلزم ان كل نبيذ حرام (المستصفى للغزالى ، جـ ١ ، ص ٣٨ — ٤٢) .

الوجوب الوجوب باستخدام القياس بنوعيه المشار اليهما . وفى الحقيقة أن فهم ابن رشد لمعنى الاعتبار فى هذه الآية ليس غريبا ، لان الاعتبار «النظر فى الحكم الثابت لاى معنى ثبت ، والحاق نظيره به ، وهـذا هـ القياس» (١٧) ، على حد تعبير الجرجانى فى «التعريفات» .

ومن الآيات التى تدل على استخدام الاستقراء ، والنظـرة العلـ الفاحصة عن الاشياء وكيف تتركب ، قوله تعالى : «افلا ينظرون الى الا كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبـال كيف نصبت ، وا الارض كيف سطحت» (سورة الغاشية ، آية ١٧ ـ ٢٠) .

وتأمل كلمة «كيف» فى هـذه الآيات لترى انهـا تعبر عن روح الـ الحديث كله ومنهجه . ذلك ان العلم ـ فى مفهوم علماء منـاهج البحـ المحدثين ـ هو اجـابة عن السـؤال «كيف» ، وليس اجابة عن السـؤ «لماذا» . بعبارة اخرى العلم يعنى ببيان كيف تتركب الظـاهرة ، ولا يعـ بالبحث عن الغاية منها .

فالقرآن حين يدعونا الى البحث فى كيفية خلق الحيـوان والكواكـ والارض انما يمـدنا بالمنهج الصحيح للبحث الاسـتقرائى فى علوم شـ كعلوم الحياة والفلك والجيولوجيا والجغرافيـا وغيرها ، دون أن يـكو القرآن نفسه كتابا يتناول موضوعات هذه العلوم الجزئية .

ومما له دلالة فى هذا الصدد ايضـا قول الله تعـالى : «ان فى خـ السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجـرى فى البـ بما ينفع الناس وما انزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبـ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون» (سـورة البقرة ، آية ١٦٤) . فهـذه الآية الـكريـ تدلنا على ان افراد البشر الذين يعقلون ـ أى يستخدمون عقولهم استخدا سليما ـ هم الذين ينظرون فى خلق السماوات والارض ، وفى الظواهـ

---

(١٧) تعريفات الجرجانى ، مادة : «الأعتبار» .

الكونية على اختلافها وهم الذين يربطون في نظرتهم تلك بين الاسباب والمسببات فيعرفون كيف خلقت السماوات والارض ، وكيف يتعاقب الليل والنهار ، وكيف تسير السفن في البحار ، وكيف ينزل المطر ، وما هي عوامل نزوله ، وكيف يرتبط بعضها بالبعض الآخر ، ويعرفون كيف تحيا الدواب على هذه الارض وعلل حياتها ، وما الى ذلك .

وينبه القرآن الى أن النظام الكوني مطرد السنن له قوانين لا تتبدل وهي ما نصل اليه بالاستقراء العلمي القائم على المشاهدة الحسية ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» «سورة يس ، آية ٤٠» .

وكذلك الاجتماع البشري له قوانين لها نفس الاطراد والثبات ، ويمكن معرفة ذلك بالاستقراء التاريخي ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (سورة الرعد — آية ١١) «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (سورة الفتح — آية ٢٣) ، «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (سورة الروم — آية ٣٠) .

على أن الانسان لا يستطيع أن يصل من التأمل في الكون الى معرفة نظامه وقوانينه الا اذا وثق بنفسه أولا ، وآمن بأن الكون المشاهد خاضع لادراكه وبحثه ، وبأن ظواهره ليست بالشيء المبهم الغامض الذي لا يفسر ، وبأن في مقدوره الاستفادة من الكون واستغلال خيراته على اوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها .

من أجل هذا ذكر القرآن للانسان أن الكون كله مسخر له ، وتأمل في قوله تعالى : «وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه» (سورة الجاثية — آية ١٣) ، وقوله تعالى «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها

وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقى ء الارض رواسى ان تميد بكم وانهـــارا وسبلا لعلكم تهتـــدون . وعـــلاما وبالنجم هم يهتدون . افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون . وان تعـــد نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم» (سورة النحل ـ آية ١٢ ـ ٨ لترى ان توجيه القرآن فى هذا الصـــدد مضاد تماما للتصـــورات الكوز الميثولوجية القـــديمة التى جعلت الإنســـان البـــدائى يستشعر الخوف الكون ، ويعتبره خارجا تماما من نطاق عمله وقـــدرته ، ويفسر ظـــواه المختلفـــة بعلل وهمية خيـــرة او شريرة ، او آلهه يسترضيهـــا بألوان الطقوس البدائيـــة .

ان تأكيد القرآن على ان الكون كله مسخر للانســـان هو فى نفـ الوقت تأكيد على روح المنهج العلمى الصحيح الذى يحاول دائما استكشـ ماهو مجهول من هذا الكون وظواهره على اساس من الثقة بقدرة الانسـ وبالعلم فى مواجهة الطبيعة .

وثمة ملاحظة هنا على جانب كبير من الاهميـــة وهى انه حينما يـ الحافز الى الاستفادة من الكون بمنهج العلم هو عقيدة الانسان الدينية ورغبته فى التقرب الى الله ، والظفر بثوابه فى حيـــاة اخرى ، فانه يـ حافزا قويا للغـــاية . ومن الآيات القرآنية ذات الدلالة العميقة فى هـ الصدد قوله تعالى : «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما ـ الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث بعده يؤمنو (سورة الاعراف ـــ آية ١٨٥).

لقد اعتبر الله تعالى العلم بالمخلوقات على اختلافها من أهم الاعـ الصالحة التى يجب على المسلم ان يحسب لها حسابا فى ميزان اعماله الحياة الاخرى ، فعليه اذن ان يبذل قصارى جهده من اجل استكناه الـ وما فيه من موجودات ، وذلك قبل ان يفاجئه اجله وهو اغفل ما يكون ،

ولهذا ذهب بعض علماء العقائد فى الإسلام الى حد القول بأن الاسـ العقلى من الاصول المقررة فى الاسلام ، فالى جانب المعتزلة الذين اوـ معرفة الله بالعقل ، نجد الاشعرية ايضا يوجبون على كل مكلف الاسـ

على وجود الله بعقله ، ويقولون : لا يكون مسلما الا من استدل (١٨) .

ويمكننا القول مما سبق كله بان القرآن الكريم قد حث الانسان على اصطناع منهج العلم الذى يتلخص فى النظر الى الكون بالقياس والاستقراء او بهما معا (١٩) من اجل الوصول الى معرفة قوانينه العامة ، ثم مواصلة السير بعد ذلك الى معرفة الله .

ويمكننا ان نوضح ذلك بالرسم البيانى التالى :

	استدلال استقرائى		استدلال قياسى	
النظر الى الكون	←	معرفة الكون	←	معرفة الله
(السماوات والارض)		وقوانينه العامة		(صانع الكون)

هناك اذن مرحلتان يسير فيهما الناظر الى الكون .

المرحلة الاولى يستخدم فيها الناظر استدلالا استقرائيا يكشف به عن الاسباب والمسببات ، ويتوصل منه الى صياغة القوانين العامة التى تخضع لها الموجودات .

والمرحلة الثانية يستخدم فيها تفكرا عقليا اساسه الاستدلال القياسى وينتهى منه الى اثبات وجود صانع مدبر للكون من طريق ما يشاهده فيه من غائية الظواهر التى لا تفسرها له المصادفة .

وبهذا ينطلق الناظر من معرفة المصنوعات الى معرفة الصانع ، و «كلما كانت المعرفة بصنعتها اتم كانت المعرفة بالصانع اتم» (٢٠) على حد تعبير ابن رشد .

---

(١٨) ابن حزم ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، جـ ٤ ، ص ٣٥ .

(١٩) المنهج العلمى لا يكمل الا باستخدام الاستقراء والقياس معا . اذ انه بعد أن يتوصل العالم من استقراء الجزئيات من عالم الطبيعة الى القانون العام او القانون العلمى ، يعود فيطبق هذا القانون على جزئيات جديدة مستخدما القياس ، فالعالم لا غنى له عن استخدام الاستدلالين الاستقرائى والقياسى معا .

(٢٠) فصل المقال ، ص ٢ .

والى هذا المعنى نفسه يشير احد العلماء المعاصرين وهو البرت ماكومب ونشتر بقوله : «ان الانسان لا يستطيع ان يدرس اعمال أى صانع من الصناع دون ان يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذى ابدع تلك الاعمال» وكذلك نجد اننا كلما تعمقنا فى دراسة اسرار هذا الكون ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الاعلى الذى ابدعه (١م)

ولقد اشار القرآن الى المرحلتين اللتين ذكرنا فى قوله تعالى : —

«ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» (سورة آل عمران — آية ١٩٠ — ١٩١) .

وقد يقف بعض الناظرين عند المرحلة الاولى ، ولا يتجاوزونها الى الثانية ، وهؤلاء «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (سورة الروم آية ٧) ، انهم قد وصلوا الى منتصف الطريق وفاتهم الغرض البعيد من البحث فى آيات الله الكونية فكانوا بذلك محجوبين عن الحقيقة ، محصورين فى دائرة المادة لا يستطيعون الخروج منها الى ما وراءها آثروا النفع العاجل على النفع الآجل ، وشغلوا بالوسائل عن الغايات «ذلك مبلغهم من العلم» (سورة النجم — آية ٣٠)

وما اجمل هذا المعنى حين يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى فى «الحكم» بقوله : «الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته»(٢م) .

(١م) انظر مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين نشرها جون كلوفر مونسما فى كتاب بعنوان : «الله يتجلى فى عصر العلم» ، الترجمة العربية دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(٢م) شرح الرندى على الحكم ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٧

لما جاء البعض من ضرورة الموضوعية والاعتماد على التجـــربة الحسية واخضاع الظواهر للقياس الكمي في البحث العلمي ، فهذا ولاشك من خصائص المرحلة الاولى ويبقى بعد ذلك ان يسير العالم من المرحلة الاولى وهي العلم ، الى المرحلة الثـــانية ، وهي الايمان ، وذلك اذا اراد ان يحقق انسانيته ، وان يجعل لحياته معنى . ان نهاية العلم في الحقيقـــة هي بداية الايمان الصحيح لا الايمان التقليدي ، وتأمل عمق المعنى في قوله تعـــالى : «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ـــ آية ٩) ، وقوله تعالى : «انما يخشى الله من عباده العلماء» (سورة فاطر ـــ آية ٢٨).

صورة الكون

والان بعد ان تبين لنا اتفاق الاسلام مع العلم روحـــا ومنهجا . وانه يوجه العقل البشرى الى خطوات منهج متكامل للكشف عن اسرار الـكون وما فيه من كائنات وقبل ان نمضى فى الحديث عن صـــورة الكون ومكان الانســان فيها فى القــرآن الـكريم . لنرى الى اى حــد تتفق مع تلك التى يمدنا العلم الحديث بها. نحب ان ننبه القارىء الى حقيقة هامة . وهى ان القرآن الكريم ليس كتـاب علم يشتمل على نظــريات فى علوم الـكون .. ان كل ما يشتمل عليه القرآن متعلقا بالكون ونشاته وتطوره لا يعدو الحقائق العامة المجملة التى يأتى العلم بعد ذلك ليكشف عن تفصيلاتها . ومن هنـــا لا نرى ان يقحم الدين بمناسبة وغير مناسبة فى تفسير الظواهر الكونية . اذ ليس هذا من شأن الدين .

ونذكر هنا قولة الرسول (ص) « انتم اعلم بشئون دنياكم» .

والحقيقة هى ان القرآن حينما يشير الى الظواهر الكونية انما يشير اليها على سبيل ايقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرهـــا التفسير العلمى الصحيح فعباراته اشبه شىء بالومضـــات القوية التى تنير امام هذا العقل السبيل الى التوصل الى علم صحيح بالكون وقوانينة .

ومن المعروف ان العقل البشرى يثير بطبيعته تساؤلات عـــدة حول الـــكون :

هل الكون حادث او قديم ؟ واذا كان حادثا فكيف حدث ؟ وهل يتناهى او لا يتناهى ؟ وهل توجد اكوان اخرى او لا توجد ؟ وما هى علة ما فى هذا الكون من النظام والاحكام؟ وهل له غاية؟

كان لابد للقرآن الكريم من ان يلبي احتياجات البشر العقلية في ا
على مثل تلك التساؤلات .

لقد قرر القرآن الكريم حقائق كثيرة تتعلق بالكون اهمها انه حـ
مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية ، وليس ثمة موجود
أبدي الا الله «الخالق البارىء المصـــور» (سورة الحشر ــ آية ٢٤
«بديع السماوات والارض» (ســورة البقرة ــ آية ١١٧) ، و «هــو
والاخر» (سورة الحديد ــ آية ٣) ، واليه ترجع الموجــودات كلها من
هو علتها الاولى ، لقوله تعالى : «وان الى ربك المنتهى» (ســورة النـ
آية ٤٢) ، والمتصفح للقرآن يرى انه يقرر في وضوح لا لبس فيه الثنائي
الله والعالم(٢م) . ومن الحقائق عن الكون انه غير محصور في مداركنا .

(٢م) على الرغم من وضوح هذه الثنائية بين الله والعالم في نصـ
القرآن ، ذهب بعض مفكري الاسلام الى القول بفيض العالم او صـــ
من الله ، وهذا هو عين مذهب افلوطين السكندري في الفيض او الصـ
(Emanation) ومن هؤلاء بعض فلاسفة الاسلام وعلى الاخص الفـا
في نظريته في فيض العقول ، وترتب الموجـودات عن الاول . ومع ا
بالفيض او الصـــدور تنتفي فكرة الخلق من العـدم (ation ex nihilo
وكذلك تصور بعض غلاة الشيعة كالاسماعيلية العالم على انه سلسلة
الفيوضات عن المبـدأ الاول على نحو خاص يتفق مع نظريتهم في الاما
وكذلك ذهب متفلسفة الصوفية من اصحاب وحـدة الوجود (ntheism
كابن عربي الى القول بان العالم موجود بواسطة الحقيقـة المحمدية
هي اول تعين فاضت عنه ســائر التعينــات الاخرى مادية كانت او رو
«انظر كتابنا ، علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٣»

وجميع القائلين بالصـــدور من مفـــكري الاســـلام يعمدون الى تا
نصوص القرآن تأويلات فلسفية خاصة لتبدو متفقة مع ما يذهبون الي
من مذاهب ، والحديث عن هــذه التأويلات يخرجنا عن موضــوع هـ
البحث .

أما المتكلمون من المسلمين فقـد عبروا عن الثنائية بين الله والعـ
قائلين : «ليس في الوجود الا الخالق وخلقه» «الفصل لابن حزم ، ج ا
ص ٩٩» ، وكل ما في الكون دون الله جواهر واعراض «تفسير الرجـ
ج ٣ ، ص ٩٠ــ٩١ ، ص ٩٤ ، ج ٥ ص ٤٩» وقد اوجده الله على سبيل

يشير القرآن الى ان هناك عوالم ومخلوقات اخرى لا نعلم نحن منها شيئا ، فيقول تعالى : «ويخلق مالا تعلمون» (سورة النحل — آية ٨) .

وكيف يمكن أن نحيط بالفضاء الخارجي والعوالم التى من فوقنا لا حصر لها والمسافات التى بينها لا يتصورها عقل انسان ؟ اننا ننتمى الى كرة الارض ، وهى تنتمى الى مجموعتنا الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية تقع فى مجرة تحتوى على ملايين المجموعات الشبيهة بها ، وفى الكون ملايين المجرات ! والمسافات بيننا وبين النجوم تقاس أحيانا بآلاف السنين الضوئية ، وسرعة الضوء ۳۰۰,۰۰۰ كيلو متر فى الثانية الواحدة !

ان الانسان اذا تأمل هذا الكون لا يمكن له الا أن يسلم بأن نسبته ، بكرته الارضية كلها ، الى العوالم الاخرى التى خلقها الله نسبة توجب تلاشية !

هذا اذا نظرنا الى العالم الاكبر (macrocosme) ؛ اما اذا نظرنا الى الانسان نفسه فسنجده عالما قائما بذاته ، وهو لا يزال مجهولا من نفسه الى الآن ، ولم يدرك بعد أسرار كثير من وظائف جسمه وعقله ، ولا يعرف ما هو مصيره بعد الموت بامكانياته المادية التى يغتر بها .

اما اذا نظرنا الى عالم الاشياء المتناهية فى الصغر (microcosme) فسنجد الذرة من حيث تكوينها شبيهة بالمجموعة الشمسية ، وسنجد كائنات

= الاختراع والابداع واحداث الشيء من لاشيء بمعنى اخراجه من العدم الى الوجود «نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٦٤» .

وأما المعتدلون من صوفية الاسلام من أهل السنة ، فيقولون ان الثنائية بين الله والعالم قائمة ، ولكن الصوفى فى حال الفناء عن ذاته يشهد الوحدة فى الوجود كله شهودا ذوقيا بمعنى تلاشى الموجودات بالقياس الى الله كما يتلاشى ضوء الشمعة فى ضوء الشمس . وهذه الوحدة الشهودية قائمة على أساس الذوق والعيان لا الاستدلال والبرهان. قارن كتابنا ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٣٠٤ وما بعدها .

ذات خلية واحدة لها جميع وظائف الحياة ، يقول سيسل هامان : «عندما تذهب الى المعمل ونفحص قطره من ماء مستنقع تحت المجهر لكى نشاهد سكانها ، فاننا نرى احدى عجائب هذا الكون : فتلك الاميبا تتحرك فى بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها فاذا به فى داخلها ، واذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق ، بل اننا نستطيع ان نرى فضلاته تخرج من جسم الاميبا قبل ان نرفع اعيننا عن المجهر . فاذا لاحظنا هذا الحيوان فترة اطول ، فاننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانا جديدا كاملا ، تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الاخرى فى ادائها الى آلاف الخلايا او ملايينها . لا شك فى ان صناعة هذا الحيوان العجيب الذى يلغ من الصغر حد النهاية تحتاج الى اكثر من مصادفة»(٤٢) .

الحقيقة ان النظر فى الكون او الآفاق البعيدة بعدا شاسعا ، والنظر فى الانسان والكائنات الدقيقة جدا ، يدلنا على آيات الخالق التى لا حصر لها ، والتى ستتجلى للانسان دائما وابدا ، وصدق الله تعالى اذ يقول «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد» «سورة فصلت ، آية ٥٣» .

واذا كنا لم نحط بعد علما بالكون المحسوس ولا بانفسنا ، فكيف نزعم ادراك كنه الخالق وما اعمق المعنى فى قوله تعالى ، «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» «سورة الانعام ، آية ١٠٣» .

واذا تبين هذا كله نقول : اننا لا نستطيع بحسب القرآن ولا بحسب ما توصل اليه العلم الحديث ان نجزم بان الكون يتناهى او لا يتناهى ، وكل ما نعلم عنه هو انه غير محصور فى مداركنا .

واذا كان الكون بحسب ما ورد فى القرآن حادثا ، وله محدث هو الله ، فمن الطبيعى ان القول بان الكون قد نشأ اتفاقا او من طريق المصادفة

---

(٤٢) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٢ .

يكون متعارضا مع القرآن ، ومع ما جاء به من عقائد . بل انه يتعارض مع العلم ذاته ، يقول جون اندولف بوهلر : «عندما يطبق الانسان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة ، مثل تكون جزيء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه ، فاننا نجد عمر الارض ، الذي يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين او اكثر لا يعتبر زمنا كافيا لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزيء من طريق المصادفة . ان ذلك لا يمكن أن يحدث الا اذا كانت هنالك قوة موجهة تهدف الى غاية محدودة ، وتعنينا على ادراك كيف يخرج النظام من الفوضى»(٥م) .

ومما يظهرنا القرآن الكريم بعد هذا عليه أن العوالم المتعددة التي يشتمل عليها الكون لم تخلق في وقت واحد ، فمنها ما هو سابق ومنها ما هو لاحق .

يقول تعالى : «وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام(٦م) وكان عرشه على الماء» «سورة هود ، آية ٧» .

وقد تساءل بعض المسلمين في عصر النبي «ص» عن بداية العالم ، فذكر البخاري وغيره قال ، اهل اليمن لرسول الله «ص» جئناك لنتفقه في الدين ، ونسألك عن أول هذا الامر ، فقال : «كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء» .

(٥م) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٦م) ليس المقصود هنا باليوم اليوم المعروف لنا، فهناك نسبية في حساب ايام الله اشار اليها القرآن نفسه ، فمرة يذكر على انه الف سنة «سورة الحج ، آية ٤٧» ، ومرة اخرى يذكر على انه خمسون الف سنة مما تعرف «سورة المعارج ، آية ٤» ، وقد يكون اكثر من ذلك حسب ما يقدر الله له .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية موضحا المقصود من هذا الحديث :

«ان قول اهل اليمن ، جئنا نسألك عن اول هذا الامر ، وهو اشارة الى حاضر موجود مشهود «اى الكون المرئى» . والامر هنا بمعنى المأمور ، اى الذى كونه الله بأمره» .

«وقد اجابهم النبى «ص» عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات «التى منها ما يتعلق بعالمنا ومنها ما لا يتعلق به» لانهم لم يسألوه عن ذلك» .

«وقد اخبرهم عن خلق السماوات والارض .. ، فظهر ان مقصوده اخباره اياهم ببدء السماوات والارض وما بينهما ، وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة ايام ، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك» .

«ولا يظن ان معناه «اى معنى الحديث» الاخبار بتعطيل الرب تعالى دائما عن الفعل حتى خلق السماوات والارض» .

«وايضا فقوله : «كان الله ولم يكن شىء قبله او معه او غيره وكان عرشه على الماء» لا يصح ان يكون المعنى انه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه اصلا ، لان قوله : «وكان عرشه على الماء» يرد ذلك ، فان هذه الجملة ، وهى «كان عرشه على الماء» فان حالية او معطوفة ، وعلى كلا التقديرين فهو ، «اى العرش» ، مخلوق موجود فى ذلك الوقت . فعلم ان المراد من قول الرسول «ص» ، ولم يكن شىء من العالم المشهود»(٢٩) .

لقد اثبتنا هذا الكلام لشارح العقيدة الطحاوية بنصه لانه على جانب كبير من الاهمية ، فهو يوضح لنا ان فى القرآن والسنة ما يفيد ان ثمة خلقا آخر كان موجودا قبل خلق هذا الكون الذى نراه ، ومنه تشكل هذا

---

(٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٦ ــ ٦٧ .

الاخير بما فيه . وهذا يعني بعبارات اخرى ان هذا الكون لم يكن على ما هو عليه ، ولم يتم خلقه بصورة مكتملة دفعة واحدة ، بل كان هناك ترتب زماني في خلق الكائنات ، بل وتطور في عملية الخلق ذاتها . وهذا متفق تماما مع ما يذهب اليه العلم الحديث الذي يحدد لاجرام المجموعة الشمسية وللارض اعمارا بواسطة حساب الاشعاع ، ويعين ازمانها التي نشأت فيها على سبيل التدريج(٢٨) .

---

(٢٨) في بحث طريف لزميلنا الدكتور زغلول النجار الاستاذ المساعد بقسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الكويت ، عنوانه «محاولات الانسان لتقدير عمر الارض» معلومات وافية عن طريقة الاشعاع في حساب عمر الارض واجرام المجموعة الشمسية ، نقتطف منه هذه النتائج التي توصل اليها العلماء في هذا الصدد . يقول سيادته : ان اقصى حد لتكوين العناصر في مجرتنا هو ٧٠٠٠ مليون سنة ، ومن ذلك استنتج العلماء ما يلي :

اولا : ان العناصر في مجرتنا قد تكونت في الفترة من ٧٠٠٠ الى ٦٥٠٠ مليون سنة .

ثانيا : ان الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ٦٠٠٠ مليون سنة .

ثالثا : ان الكواكب الابتدائية قد تحولت الى كواكب مادية منذ حوالى ٥٠٠٠ مليون سنة .

رابعا : ان الفصل الكيميائي في اجسام الكواكب قديم منذ ٤٥٠٠ مليون سنة .

خامسا : ان القشرة الخارجية للارض قد تكونت بصورة دائمة منذ ٤٠٠٠ مليون سنة .

سادسا : ان اقدم اثر للحياة ظهر على الارض منذ ٣٠٠٠ مليون سنة .

سابعا : ان الحياة ظهرت بصورة مزدهرة منذ ٦٠٠ مليون سنة ، «بينما ظهر الانسان على سطح الارض منذ مليون سنة» ويقول الدكتور زغلول : «وبذلك استطاع الانسان الاجابة على ذلك السؤال المحير : منذ متى كانت الارض ، اجابة مدعمة بالاستنتاجات المنطقية المجردة عن

ومما يدلنا ايضا على ان الكون قد خلق بما فيه من عوالم متعددة بالتدريج وليس دفعة واحدة قوله تعالى : «الحمد لله رب العالمين» «سورة الفاتحة ، آية ٢» .

ويبين لنا شارح العقيدة الطحاوية ان من بين المعانى التى تتضمنها كلمة «رب» «التربية ، وهى تبليغ الشيء كماله بالتدريج»(٢٩) .

وهذا هو عين ما يفهم من التطور Evolution فى الخلق ، اى ان الخلق لا يتم دفعة واحدة ، وانما على مراحل ، من الادنى الى الاعلى ، او من الاقل كمالا الى الاكثر كمالا . ولعل هذا المعنى يفهم ايضا من قوله تعالى : «يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» «سورة فاطر، آية ١» .

ففكرة التطور ذاتها ليست مخالفة للقرآن وانما الذى يخالفه هو القول بأن هذا التطور المشاهد فى الكائنات علويها وسفليها يتم عن طريق المصادفة وليس عن صانع مدبر حكيم .

والظاهر من القرآن الكريم بعد ذلك أن الكون كان وحدة متصلة تكثرت بعد ذلك الموجودات عنها . ولعل هذا المعنى يستفاد من قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

أما المادة التى تشكلت منها الاجرام السماوية فتوصف فى القرآن بأنها «دخان» . يقول تعالى : «ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها

الخرافات والحدس والتخمين ، فكانت الارقام السابقة ، والعلم لا يدعى ان هذه الارقام لا تقبل التغيير ، فقد تؤكدها الدراسات المستقبلة او تحورها ولكن الحقيقة الثابتة هى ان الارض ليست ازلية بل مستحدثة» محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الكويت ، ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، المطبعة العصرية بالكويت ، ص ٥٠٣ .

(٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٨ .

وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين»(٣٠) .

واما مادة الكائنات الحية التي منها نشأت وتطورت فهي «الماء» لقوله تعالى «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

ومما يستوقف الذهن البشري حقيقة اشارة القرآن الى أن أصل الكائنات جميعا واحد ، وهي تتكون من زوجين اثنين ، يقول تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين» «سورة الذاريات ، آية ٤٩» ، ويقول تعالى : «سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون» «سورة يس ، آية ٣٦» .

وقد يطمئن عقل الانسان الى معاني مثل هذه الآيات بعد ان اكتشف العلم الحديث وحدة التركيب الذري للكائنات على اختلافها ، وان الذرة الواحدة تتكون من الكترون وبروتون .

وقد صور لنا الفيلسوف المعاصر برتراندرسل العالم الطبيعي بعد اكتشاف اينشتين لنظريته في النسبية(٣١) قائلا : «درسنا العالم الطبيعي فوجدنا ان المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها اذ حللها

---

(٣٠) سورة فصلت ، آية ١١ ، ومن الافتراضات العلمية الآن انه في اول تاريخ مجرتنا كانت هناك سحابة من غبار ذي تركيب كوني يشبه السديم ، واخذت واحدة من سحابات عديدة تتكثف على هيئة نجوم تشبه الشمس بينما دار حولها قرص من غبار وغاز سرعان ما تكسر الى دوامات ذوات حجوم وترتيب مختلف في داخل اي منطقة نصف قطرية يزداد حجمها كلما بعدت عن الشمس وبالتحام هذه الدوامات عند النقائها اصبحت كتلا منفصلة من الغاز على ابعاد نصف قطرية من الشمس . وقد اطلق العلماء على هذه الكتل المنفصلة اسم الكواكب الابتدائية .
«انظر الدكتور زغلول ، محاولات الانسان لتقدير عمر الارض ، محاضرات الموسم الثقافي ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، لجامعة الكويت ، ص ٥٠٢» .

(٣١) موجز الفلسفة ، ترجمة الاستاذ الدكتور زكي نجيب محمود ، بعنوان «الفلسفة بنظرة علمية» مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٨ .

العلماء الى مجموعات ذرية ، كل مجموعة منها تنحل الى ذرات ، وكل ذر تعود بدورها تنحل الى كهارب موجبة وكهارب سالبة» .

ولعل من الآيات القرآنية التى اتضح معناها على ضوء ما وصل اليه الفيزياء المعاصرة من هذه النتائج ، قول الله تعالى : «وترى الجبا تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء» «سور النمل ، آية ٨٨» .

فالجبال وما اليها من الاجسام المادية مدركة لنا على انها ثابتة صلبة وليس الامر كذلك ، فهى عبارة عن عدد هائل من الذرات المنطوية ع كهارب موجبة واخرى سالبة ، مردها الى اشعاعات فهى لذلك اشبه ش بالسحاب من حيث انه عارض ومتخلخل . يقول برتراند رسل «ثم مض العلماء فى التحليل فحللوا هذه الكهارب نفسها «التى تتكون منها الذر الى اشعاعات ..» وللفيزياء النظرية جانب آخر هو نظرية النسبية وهى نظرية ذات نتائج فلسفية هامة ، منها تحويل العالم الطبيعى ا متصل من الحوادث ذى اربعة ابعاد بعد ان كان سلسلة من حالات ذوا ثلاثة ابعاد لعالم مؤلف من قطع من المادة لها صلابة وثبات» ، ثم هو يقر بعد ذلك : «وليس فى علم الفيزياء ما يبرهن على ان الخصائص الذاتيـ للعالم الطبيعى تختلف عن خصائص العالم العقلى !»(٣٢) .

ويبين عالم الطبيعة ادوين فاسبت كيف ان النظر فى المادة التى م نشأ الكون نظرة علمية تحليلية يؤدى بنا فى النهاية الى الايمان بوج الله قائلا :

«وعندما تحاول العلوم أن تفسر لنا منشأ الكون نجدها تبين لنا ضوء ما لدينا من المعلومات من الطبيعة النووية كيف تتفاعل الجزيئـ الاساسية لكى تكون لنا جميع العناصر المعروفة فجميع العناصر ا

---

(٣٢) انظر موجز الفلسفة ص ٢٥٨ ، ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها تنضم بعضها الى بعض» .

«أما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها ، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات ، فان ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحا أو بيانا» .

«ومهما بالغنا في تحليل الاشياء وردها الى أصولها الاولى فلابد أن نصل في نهاية المطاف الى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون ، ويعد ذلك في ذاته دليلا على وجود اله قادر مدبر هو الذي قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير في طريقها المرسوم(٣٣) » وقد خلق الله الالكترونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة ، فرسخ لها بذلك سلوكها واقدارها»(٣٤) .

الكون اذن لا حقيقة له الا من حيث ما اثبت الله له من الوجود بجميع عناصره على النحو الذي وضحه لنا العلم الحديث ، وهي عناصر تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها ينضم بعضها الى البعض الاخر . ومهما بدت موجودات هذا الكون ثابته صلبة في ادراكنا نحن فانها في حقيقتها ليست سوى ذرات تعود بدورها فتنحل الى اشعاعات فليس ثمة حقيقة الا موجد الكون وما عداه من الكائنات هو اشبه شيء بوهم عارض كما يقول بعض صوفية الاسلام .

والله اذن هو العلة المسكة بالعالم ، والحافظة عليه وجوده ولو لم يكن ذلك لتلاشى ، وهذا هو معنى قوله تعالى : «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا» (سورة فاطر ، آية ٥١) .

وقد اشار بعض مفكري الاسلام الى معنى كون الله حافظا للعالم أو خالقا له باستمرار ، في شيء من التفصيل :

---

(٣٣) هذا هو ما تشير اليه الآية الكريمة : «وخلق كل شيء فقدره تقديرا» «سورة الفرقان ، آية ٢» .

(٣٤) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ٩٦ .

يقول ابن حزم الاندلسي ما نصه : «والله تعالى خالق لكل مخلوق في كل وقت .. قال عز وجل : «ثم انشأناه خلقا آخر» (سورة المؤمنون آية ١٤) ؛ وقال تعالى «خلقا من بعد خلق» (سورة الزمر ، آية ٦) ، فصح ان في كل حين يحيل الله تعالى أحوال مخلوقاته ، فهو خلق جديد ، والله تعالى يخلق في كل حين جميع العالم خلقا مستأنفا دون ان يفنيه» (٣٥) .

ويقول الكندي ان «الله هو المبدع الممسك كل ما أبدع ، فلا يخلو شيء من امساكه وقوته الا باد واندثر» (٣٦) .

وكذلك يذهب ابن عطاء الله السكندري الى القول بأن الله هو العلة التي تمد الوجودات بعد وجودها بالوجود ، وهذا هو ما يسميه بالامداد على نحو ما يتبين من قوله في «الحكم» : «نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما : نعمة الايجاد ونعمة الامداد» (٣٧)

وهو يقول ايضا : «أمد (الله) كل موجود بوجود عطائه ، وحفظ وجوده (أي وجود الله) وجود العالم بامداد بقائه» (٣٨) .

وجدير بالذكر ان ما يذهب اليه مفكرو الاسلام الذين ذكرنا في هذا الصدد متفق مع ما يذهب اليه بعض الفلاسفة المحدثين في أوروبا ، من القول بالخلق المستمر (Création Continuée) مثل ديكارت

---

(٣٥) الفصل ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

(٣٦) رسائل الكندي ، تحقيق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٦٢ .

(٣٧) شرح الرندي على الحكم ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٣٨) التنوير في اسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ، ص ٥٢ .

(39) Descartes : Discours de la methode. œuvres de Descartes, ed, Libraire Joseph Cibert P. 46 Les Principes de la Philosophie pp. 192—193.

«٣٩» ومالبرانش «٤٠» .

ونعود مرة اخرى الى خلق الله للاشياء فنقول:

ان الله خلق كل شيء في هذا الكون بقدر ، اي بتقدير كمي وزماني وفق ماهية سابقة . وان شئت قلت : حدده واعطاه اوصافه وجعل له رتبة وجودية معينة ، يقول ابن حزم : «ومعنى القدر في اللغة العربية الترتيب والحد الذي ينتهي اليه الشيء ، تقول : قدرت البنـاء تقديرا اذا رتبتـه وحـــددته» .

«قال تعالى : «وقدر فيها اقواتها (سورة فصلت ، آية ١٠) ، بمعنى رتب اقواتها وحددها . وقال تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر» (سـورة القمر ، آية ٤٩) يريد تعالى ، برتبة وحد . فمعنى قضى وقدر : حكم ورتب ! ومعنى القضاء والقـدر : حكم الله تعالى في شيء بحمـده وذمه ، وبكونه وترتيبه على صفة كذا ، والى وقت كذا» «٤١» .

والآيات التي تشير الى تقدير المخلوقات تقديرا كميا خاضعا للقيـاس او الحساب كثيرة في القرآن ، وحسبنا ان نشير هنا الى بعضها : «وخلق كل شيء فقدره تقديرا» ، (سورة الفرقان ، آية ٢) .

«والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» (٤٢) .

«فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم» (سورة الانعام ، آية ٩٦) .

---

(40) Malbranche : Entretiens Métaphysiques, VII, 7ed. Fontana 1, 150.

(٤١) الفصل ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

(٤٢) سورة يس ، آية ٣٨ — ٣٩ . والمقصود بالعرجون القديم فرع النخل اليابس ، اى ان القمر لا حياة فيه ، وهذا هو ما تاكد بعد الهبوط عليـــه .

«ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلنـــاه في قرار مكين . إلى قـدر معلوم . فقدرناه فنعم القادرون» (سورة المرسلات ، آية ٢٠ — ٢٣) .

«سبح اسم ربك الاعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى» (سورة الاعلى ، آية ١ — ٣)

«والسماء وضعها ورفع الميزان» (سورة الرحمن ، آية ٧)

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون» (سورة الحجر ، آية ١٩) .

ومن الآيات التى تشير ايضا الى تقدير المخلوقات تقـديرا زمنيـــا قوله تعالى :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر (سورة يونس ، آية ٣) .

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منـازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» (سورة يونس ، آية ٥) .

«وإن يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون» (سورة الحج ، آية ٤٧) .

«يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون» (سورة السجدة ، آية ٥) .

«تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين الف ســنة» (سورة المعارج ، آية ٤) .

وثمة ملاحظة هـامة هنا ، وهى ان اختـلاف التقدير فى الايام على النحو الذى تشير اليه بعض آيات القرآن . يفهم اذا علمنا ان الزمان هو امر نسبى ، وهو كما نعلم يقدر بحركة الافلاك فى مجموعتنا الشمسية ، اما خارج نطاق هذه المجموعة فليس ثمة زمان بالمعنى الذى نفهمه نحن على هـــذه الارض .

هذا عن خلق الله للموجودات بمقدار ، اى تحـديدها من ناحية الكم وفى الزمان .

اما عن ماهية كل موجود او طبيعته الخاصة به ، فقد اشار القرآن اليها في قوله تعالى :

«قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى» (سورة طه ، آية ٥٠) وفي قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) .

ويتحدث ابن حزم من ان الله قد جعل لكل موجود طبيعة معينة قائلا : «وكل هذه الطبائع (التى للموجودات) والمادات مخلوقة . خلقها الله عز وجل . فرتب الطبيعة على انها لا تستحيل ابدا ولا يمكن تبدلها عند كل ذى عقل ، كطبيعة الانسان بان يكون ممكنا له التصرف فى العلوم والصناعات ان لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بانه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر «اى القمح» ان لا ينبت شعيرا ولا جوزا ، وهكذا كل ما فى العالم» (٤٣) .

وهكذا يمكن القول بحسب الاسلام ان الله قد خلق كل مخلوق وفق ماهية سابقة له . وهذا مخالف لما يذهب اليه اصحاب الفلسفة الوجودية في العصر الحاضر من القول بأن الوجود سابق على الماهية .

وينبه القرآن الكريم بعد هذا كله الى ان الكون كله يسوده نظام محكم لا تفاوت فيه ولا نقص . يقول تعالى : «الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير» (٤٤) .

والحكمة تقتضى ان الموجودات فى الكون انما توجد وفق قوانين او على حد تعبير القرآن لسنن لا تتبدل .

وليس ادل على انتظام امر الكون من انه خاضع لقوانين ثابتة ، يقول تعالى : «افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها

---

(٤٣) الفصل ، ج ٥ ، ص ١٦ .

(٤٤) سورة الملك ، آية ٣ ــ ٤ . والفطور هى الشقوق ، والمقصود انك لا ترى اختلالا .

من فروج» (٤٥) .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه النقطة لنفصل الكلام فيها ، ليتبين القارىء ان القرآن حين يوجه العقول الى اكتشاف سنن الكائنات انما يدعو دعوة صريحة الى العلم بالمعنى الذى يفهم منه فى عصرنا .

فالقرآن يذكر فى آيات كثيرة ان الله قد خلق المخلوقات على اختلافها بالحق ، وهذا يعنى انها لم تخلق باطلا او عبثا او على أى نحو اتفق يقول تعالى :

«أولم يتفكروا فى انفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى» (سورة الروم ، آية ٨) .

«وما خلقنا السماوات الأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون» (سورة الدخان ، آية ٣٨ — ٣٩) .

«خلق السماوات والارض بالحق وصوركم فاحسن صوركم واليه المصير» (سورة التغابن ، آية ٣) .

ومعنى كلمة «الحق» الواردة فى مثل هذه الآيات ، ما يوجد بمقتضى الحكمة ، كما يذكر الراغب الأصفهانى فى «مفردات غريب القرآن» (٤٦) ولذلك توصف افعال الله كلها بانها حق ، أى انها تصدر عن الله بمقتضى علمه وحكمته .

معينة (٤٧) ، والا لم تكن حكمة ، وهذه القوانين ليست شيئا اكثر من ربط الاسباب بمسبباتها ، والى هذا يشير ابن رشد ، فى عبارات تدل على

---

(٤٥) سورة ق ، آية ٦ . والمقصود بقوله تعالى : «فالها من فروج» ليس فيها عيوب أو نقائص .

(٤٦) مفردات غريب القرآن ، مادة : «حق» .

(٤٧) يطلق على الموجودات فى القرآن احيانا وصف الكلمات ، وهى لا تتبدل من حيث قوانينها ، يقول ابن حزم : «لا مبدل لكلماته» ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه» ، الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ ، وانظر سورة الانعام ، آية ١١٥ ، وسورة الكهف ، آية ٢٧ .

علمية تفكيره ، قائلا : «الحكمة ليست شيئا أكثر من معرفة اسباب الشيء ، واذا لم تكن للشيء اسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفةالتي هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره ، كما انه لو لم تكن هنا اسباب ضرورية في وجود الامور المصنوعة لم تكن هنالك صناعة اصلا ولا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع .

«واى حكمة كانت تكون في الانسان لو كانت جميع افعاله وأعماله يمكن ان تاتي بأى عضو اتفق ، او بغير عضو ، حتى يكون الابصار مثلا يتاتى بالاذن كمايتاتى بالعين ، والشم بالعين كما يتاتى بالانف» .

«وهذا كله ابطال للحكمة ، وابطال للمعنى الذى سمى به (الله) نفسه حكيما . تعالى وتقدست اسماؤه عن ذلك» (٤٨) .

وعلى ذلك فان «بناء المسبباب على الاسباب هو الذى يدل على انها (اى الموجودات) صدرت من علم وحكمة» (٤٩) .

وبشيء يسير من التأمل يدرك الانسان انه لابد ان تكون هناك قوانين معينة للظواهر الكونية ، هى مظهر حكمة الخالق تعالى .

فالذى ينظر الى السماء يرى النجوم والكواكب معلقة في الفضاء دون ان تستند الى شيء ، يقول تعالى ، «الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها» (سورة الرعد ، آية ٢) ، ومثل هذا التنبيه القرآنى من شأنه ان يدفع الانسان الى التساؤل عن علة وجود الاجرام فى السماء على هذا النحو ، ثم اذا بالانسان يهتدى الى قوانين الجاذبية والحركة والنسبية وما الى ذلك ، فيعرف الاسباب الحقيقية لتلك الظاهرة .

وكذلك المتأمل فى ظاهرة تعاقب الليل والنهار يتساءل عن السر فى

---

(٤٨) الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤١ .
(٤٩) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

تعاقبهما ، فيجيبه القرآن بما يفيد كروية الارض ودورانها المستمر ، فيقول تعالى : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» (سورة الزمر ، آيـــة ٥) .

وليس هذا فهما معاصرا لهذه الآية ، وانما هو فهم قـــديم توصل اليه علماء المسلمين قديما بفضل القرآن ، وفي ذلك يقول ابن حزم : «ان أحـــدا من ائمة المسلمين المستحقين لاسم الامامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الارض ، ولا يحفظ لاحد منهم في دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها . قال الله عز وجل : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» . وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض ، ماخوذ من كور العمامة وهو ادارتها» (٥٠) .

ومن الظواهر الطبيعية التي يجمل القرآن الكريم الاشـــــارة الى اسبابها بما لا يختلف عما هو معروف من العلم الحديث ، السحاب والمطر والبرق يقول تعالى :

«الله الذي يرسل الرياح فتثير ســـحابا فيبسطه في الســـماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عبادة اذا هم يستبشرون» (٥١) .

«الم تر ان الله يزجي ســـحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فتـــرى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار» (سورة النور ، آيـــة ٤٣) .

ان القرآن بمثل هاتين الآيتين يدفعنا الى علمية التفكير المتمثلة في ربط الظواهر الطبيعية بعللها الحقيقية لا الوهمية ، فالسحاب والمطـــــر والبرق ترتبط في حدوثها بعوامل معينة كحرارة الشمس ومياه البحر وبخار الماء المتصاعد بفعل الحرارة والرياح واحتكاك السحب حين تتجمع .

---

(٥٠) الفصل ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٥١) سورة الروم ، آية ٤٨ والودق هو المطر .

هذه امثلة قليلة مما يزخر به القرآن من آيات تحث عقل المفكر على اكتشاف قوانين الطبيعة التي هي مظهر نظام الكون ، كما انها في نفس الوقت دلالات على ان هذا الكون لم يخلق باطلا او عبثا ، وان له غاية .

وصدق الله تعالى اذ يقول : «وما خلقنا السماوات والارض باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (سورة ص ، آية ٢٧) .

وانظر الى العلم بالكون وقوانينه حينما ينتهي الى الايمان بالله في صورة رائعة يقدمها لنا سيسل هامان اذ يقول :

«فاذا رفعنا اعيننا نحو السماء فلابد أن يستولي علينا العجب اكثر ، من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها ، والتي تتبع نظاما دقيقا لا تحيد عنه قيد انملة ، مهما مرت بها الليالي ، وتعاقبت عليها الفصول والاعوام والقرون . لانها تدور في افلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة .

«فهلا يظن احد بعد ذلك ان هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون اكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى في الفضاء» واذا لم يكن لها نظام ثابت ، ولم تكن تتبع قوانين معينة ، فهل كان من الممكن ان يثق الانسان بها ، ويهتدي بهديها في خضم البحار السبعة ، وفي الطرق الجوية التي تتبعها الطائرات (*) .

«الحق انه من تطرة الماء التي رأيناها تحت المجهر الى تلك النجوم التي شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الانسان الا ان يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التي تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه .

«ولولا ثقة الانسان في ان هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما

(*) هذا هو معنى قوله تعالى : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» ؟ سورة النحل ، آية ١٦ .

اضاع الناس اعمارهم بحثا عنها فبدون هذا الاعتقاد وتلك الثقة فى نظام الكون يصير البحث عبثا ليس وراءه طائل .

«ولو انه كلما اجريت تجربة اعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة او عدم وجود قوانين مسيطرة فأى تقدم كان من الممكن ان يحققه الانسان؟ ..

«لابد ان يكون وراء كل ذلك النظام خالق اعلى . فليس مما يقبله العقل ان يكون هناك نظام او قوانين دون ان يكون وراءها عقل اعلى ومنظم مبدع .

«وكلما وصل الانسان الى قانون جديد فان هذا القانون ينادى قائلا : ان الله هو خالقى وليس الانسان الا مكتشفا!» (٥٣) .

خلاصة القول فيما سبق ان معالم صورة الكون فى الاسلام تتحدد على النحو التالى : —

الكون كله حادث مخلوق ، وكلّ ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية والله تعالى هو الذى خلقه بما فيه من عوالم متعددة ومخلوقات تعلم بعضها ولا تعلم عن البعض الآخر شيئا ، وان الكون لعظم اتساعه غير محصور فى مداركنا ، ولذلك لا يمكن القطع بانه يتناهى او لا يتناهى . وكذلك فان الله لم يخلق عوالم الكون دفعة واحدة وانما خلقها على سبيل التدريج او التطور ، وان الموجودات جميعا فى الكون من اصل واحد . والله هو الممسك للكون او الحافظ عليه وجوده ، ولولا ذلك لتلاشى ، وان خلقه للموجودات مستمر . وحين خلق الله مخلوقاته فانه خلقها بقدر ، اى بتقدير كمى وزمانى وفق ماهيات سابقة . والكون كله يسوده نظام دقيق محكم اذ ان جميع الموجودات فيه خاضعة لقوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ! وهذا هو معنى ايجادها بالحق ، اى بمقتضى حكمه معينة .

---

(٥٣) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٤ .

علاقة الإنسان بالكون

واذ قد تبينت صورة الكون على هـذا النحـو ننتقل الى البحث عن الانسان من حيث علاقته بالكون : كيف وجد فيه ، وما هي طبيعتـه المميزة له ، وما هي رسالته في هذه الحياة التي يحياهـا على الارض ، وما معنى تسخير الكون له ، او ملاءمته لوجوده ، وهل لحياته غاية ابعـد من تلك التي تتحقق على الارض؟ كل اولئك تسـاؤلات نحـاول ان نجيب عليها فيما يلي :

الانسان بحسب ما ورد في القرآن الكريم هو محور هذا الكون ، وعلى قمة مخلوقاته وموضع التكريم والعناية الالهية فيه ، خلقه الله في احسن تقويم وجعله في اكمل صورة . يقول تعالى : «لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) ، ويقول تعالى : «وصـوركم فاحسن صوركم» (سورة غافر ، آية ٦٤) .

اما كيف تم خلق الانسـان ، فهذا مما لا نستطيع الوقوف على حقيقته ، صحيح ان في القرآن الكريم ما يشير الى قصة خلق آدم ، وكيف علمه الله الاسماء كلها ، وامر الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس ، وكيف اخطأ هو وزوجه فأمرهما الله بالهبوط الى الارض ، (سورة البقرة ، آية ٣٠) وما بعدها ، ولكن هذه كلها اشارات الى امور غيبية لا نعرف كنهها وهي ايضا مما يحتمل تأويلات شتى .

وقد اصاب ابن حزم حيث يقول : «فلسنا نعلم ولا احد من الناس كيفية ذلك (اي بدء الخلق) ، وهـذا نص قوله تعالى : «ما اشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق انفسهم» (سـورة الكهف ، آيـة ٥١) .. اما ما كان بعـد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات ، قال تعـالى : «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبـدل لكلماته» (سـورة الانعام ، آية ١١٥) ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه» (٥٤) .

---

(٥٤) الفصل ، ج ١ ، ص ٨٥ .

ولا يعيب الانســـان المفكر أبدا أن يقر بعجـــز عقله الآن عن ادراك حقيقة ما ، فما أكثر ما لا نعرفه بيقين ، وانما الذى يعيبه حقا هو أن يسارع فينكر ها لمجرد الانكار ، أو يخوض فى الكلام عنها متأولا بما لا يعرف .

واذا كان العلماء يحددون الآن بدء ظهور الانســـان على هذه الارض بما يقرب من مليون سنة ، استنادا الى اقدم الحفريات ، فهذا يدل على ان الانسان قد جاء خاتمة لسلسلة من المخلوقات ادنى منه سبقته على هـذه الارض ، بل أن الانسان نفسه تطور على هذه الارض مارا بمراحل متتالية حتى الى ما بلغ اليه من كمال ، يقول تعالى :

«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (سورة الإنسان ، آية ١) .

« ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» (ســـورة نوح ، آية ١٢ ـــ ١٨) .

ولكن التطور الذى تشير اليه مثل هذه الايات فى القرآن اشـــارات مجملة أنما يتعلق بالانسان من حيث هو كائن مادى ، لا من حيث هو كائن روحى ، فالانسان بالاعتبـــار الاول نشـــأ على هذه الارض وتطـــور ، اما بالاعتبار الثانى فقد كان له وجود روحى ســـــابق فى عالم آخر ـــ وهو ما تشير اليه قصة خلق آدم فى القرآن ـــ وان كنا لا ندرى كيفيات هـــذا الوجـــــــود .

يقول تعـــالى : «ويســـــــألونك عن الروح قل الروح من أمـــر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

اما القول بأن الانسان مادة فقط ، فهو قول ينقضه ما يعرفه الانسان بفطرته ، فهو كائن يعى ذاته ، والمادة لا تعى ذاتها .

واكثر من ذلك هو الكائن الوحيد من بين سائر الكائنات الاخرى الحية القادرة على استخلاص اشد انواع المعرفة تجريدا بعمليات ذهنية فى غاية من التعقيد ، ولا حدود لانطلاقاته فى هذا السبيل .

والانسان حين يعمد الى تأمل ذاته ، او ما يسميه علماء النفس بالاستبطان (Inirospection) لا يدرك مادة ، وانما يدرك فكرا .

وبتعبير اكثر دقة يدرك حالات متتابعة من التفكير ، هى ما يطلق على مجموعة الذات المفكرة ، او بتعبير علماء النفس الانا (Ego) ، على اعتبار أن وحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلا ان تصدر عنه .

ان استمرار حياة الانسان الوجدانية فى تيار واحد لا انقسام فيه ولا انفصام ، او بعبارات اخرى شعوره من أول عمره الى آخره بحركة فكره المتصلة فى الزمان ، يثبت له أن ذاته المفكرة متميزة عن البدن تماما ، ان كانت هى علة تدبيره وحركته .

ولما كان الانسان يدرك هذا كله من نفسه مباشرة ، فانه غير محتاج فى اثبات صدقه الى دليل من خارج ، فالحدس دائما اقوى من البرهان .

والانسان يدرك من نفسه ايضا بطريق مباشر انه حين يسلك فانما يسلك بمقتضى حوافز معينة وليس عشوائيا ، ولا نستطيع ان نصف كل هذه الدوافع بانها مادية . ولهذا فان مظاهر سلوك الانسان من اشد الامور تعقيدا اذ لا يمكن تفسيرها آليا . ولم ينجح علماء النفس بعد فى اخضاع جميع الظواهر النفسية فى الانسان الى القياس الكمى . وعلى سبيل المثال فان مجال العواطف الانسانية لا يزال الى الآن من اغمض المجالات فى علم النفس .

كل هذا يدلنا على الفارق بين الانسان وبين غيره من الكائنات الحية وغير الحية ، وهو الفارق الذى يكمن فى ان الانسان حين يصدر فى سلوكه فانما يصدر عن ارادة واعية وفكر استدلالى ، والفكر غير خاضع لقوانين المادة ، وهى لا تفسر لنا شيئا من تصوراته المجردة وعملياته المعقدة .

ونحن اذا قلنا ان الانسان كائن ذو طبيعتين ، احداهما تتعلق بعالم المكان والزمان ، والاخرى تتعلق بعالم آخر غير مادى ، فان قولنا هذا ليس يعبر عن فكرة ميتافيزيقية بعيدة عن واقع الانسان كما يحسه هو نفسه مباشرة . فالانسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بشعوره وبعقله نزوعا غريبا الى ما وراء المحسوس ، وهو نزوع يكاد ان يكون فطريا فيه وملازما لطبيعته ، فكيف يمكن اغفال دلالات ذلك؟

ونعود الآن الى ما كنا بصدده ، فنقول ، ان الانسان نشأ وتطور على هذه الارض ، ولكن بعد وجود سباق لا ندرى كنهه فى عالم آخر غير هذا العالم المحسوس .

ومن الآيات القرآنية التى لها دلالة على ما ذكرنا قول الله تعالى :

«واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين» (سورة الاعراف ، آية ١٧٢) .

ويذكر فخر الدين الرازى عند تفسيره لهذه الآية ان صوفية الاسلام يلخذون فى تفسيرها برأى مؤداه أن الارواح البشرية موجودة قبل الابدان ، وان الاقرار بوجود الاله من لوازم ذواتها وحقائقها (٥٥) .

والواقع أن صوفية الاسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين فهموا تلك الآية الكريمة على هذا النحو ، ولكن يشاركهم فى هذا الفهم ابن حزم على الرغم من انه من ائمة الظاهرية ، فهو يقول :

«ان الله تعالى قد نص كما ذكرنا انه اخذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ، وهذا نص جلى على انه عز وجل خلق انفسنا كلها من عهد آدم عليه السلام ، لان الاجساد حينئذ بلا شك كانت ترابا وماء . وايضا فان

---

(٥٥) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ج ٥ ، ص ٣١٢ وما بعدها .

المخاطب انما هو النفس لا الجسد . فصح بقينا ان نفوس كل من يكون من بنى آدم الى يوم القيامة كانت موجودة مخلوقة حين خلق آدم بلا شك . ولم يقل الله عز وجل انه افتانا بعد ذلك . ونص تعالى على انه خلق الارض والماء حينئذ بقوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء آية ٣٠» ، وقوله تعالى : «خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على على العرش» «سورة الاعراف ، آية ٥٤» . واخبر عز وجل انه خلقنا من طين ، والطين هو التراب والماء ، وانما خلق تعالى من ذلك اجسامنا ، فصح ان عنصر اجسامنا مخلوق منذ اول خلقة تعالى السماوات ، وان ارواحنا ، وهي انفسنا ، مخلوقة منذ اخذ الله تعالى عليها العهد»(٥٦) .

وفي رأينا انه لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم

كما ان علم الانسان بنفسه وبامكاناته الماثلة لا يزال محدودا الى الان ، وربما استطاع الانسان ان يعرف من الكون المادي اكثر مما استطاع ان يعرفه من اسرار نفسه .

مهما يكن من شيء ، فان الله تعالى خلق الانسان ، وشاء ان تكون هذه الارض مستقرا له الى وقت معلوم ، وفي ذلك يقول تعالى : «ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين» «سورة البقرة ، آية ٣٦» .

والانسان في هذه الدنيا صاحب رسالة فقد استخلفه الله على الارض ليعمرها ويستخرج خيراتها لا ليزهد فيها وينصرف عنها ، وهذا هو معنى الاستخلاف في قوله تعالى : «اني جاعل في الارض خليفة» «سورة الانعام ، آية ١٦٥» .

---

(٥٦) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

على ان هذا الاستخلاف لا يخلو من الامتحان ، فقد اراد الله لهذا الانسان ان تعاني نفسه من الصراع بين نوازع الخير والشر فيما هو مستخلف فيه ، وهو صراع تكتمل من خلاله شخصيته ، وترتقي من الناحيتين الروحية والمادية ، فيتهيأ بهذا لحياة اخرى غير هذه الحياة ، والقانون الذي يحكم هذا كله هو : الجزاء على قدر العمل ، يقول تعالى :

«وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» «سورة الأنعام ، آية ١٦٥» .

«هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا» «سورة فاطر ، آية ٣٩» .

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» «سورة الكهف ، آية ٧» .

«ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» «سورة يس ، آية ٥٤» .

«يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا اعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» «سورة الزلزلة ، آية ٦ — ٨» .

وكان من مظاهر رحمة الله ان جعل في الانسان عقلا ليستطيع به ادراك اسرار الكون ومعرفة خالقه ، وترتيب امور معاشه في هذه الدنيا على افضل وجه . وهذا العقل هو الامانة التي يذكر القرآن ان الانسان قد حملها «انظر : سورة الاحزاب ، آية ٧٢» . وبواسطة العقل ايضا يستطيع الانسان ان يميز بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، كما يفهم من قوله تعالى : «ونفس وما سواها .. فألهمها فجورها وتقواها» «سورة الشمس ، آية ٧ — ٨» .

ومن مظاهر رحمة الله بالانسان ايضا ارسال الرسل بالبينات ، لعلمه تعالى بأن شهوات الانسان وأهواءه قد تنحرف بعقله إلى مسالك الشر

وكان ان تتابعت الرسالات مسايرة المجتمعات الانسانية في تطورها الصاعد آخذة بيد البشرية الى اسباب ارتقائها الروحي والمادي حتى كانت الرسالة المحمدية فختمت بها الرسالات ، وتحققت بها الرحمة كاملة ، يقول تعالى : «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» (سورة الانبياء ، آية ١٠٧) .

جاء الاسلام لنوع الانسان بالتوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة ، وتم بلاغ السماء للناس جميعا ، وتأكدت اهمية الانسان على هذه الارض وكرامته وعزته ، وتحددت صلته بربه ، وبأشباهه من الناس ، على اسس واضحة ، وتركت للناس مسالحهم المرسلة يعالجونها كلما جدت وقائع جديدة في حياتهم وانتهت مرحلة الاعتماد على الخوارق في اثبات الرسالات بوصول البشرية الى مرحلة الاعتماد على العقل في معرفة الكون وخالقه .

لهذا كان العقل دعامة اساسية من دعامات الاسلام ، واستخدام العلم من اقوى الوسائل الى تحقيق رسالة الانسان على هذه الارض ، وهي ان يعمرها ويستغل خيراتها الى ابعد الحدود .

ونظرة الى تاريخ حضارة الانسان منذ وجد على هذه الارض الى الآن كفيلة ببيان الحكمة الالهية من وجود الانسان ، فالتطور الهائل في امكانياته يدلنا على ان الله قد اوجد فيه من الاستعدادات ما لم يوجد في مخلوق آخر ، ولا زال مستقبل الانسان يحمل من الامكانيات في تسخير الطبيعة ما لا نعلم وما قد لا نتصور ، ومن ذا الذي كان فيما مضى يتصور وصول الانسان الى القمر ؟!

ان الانسان في الحقيقة هو قمة الموجودات في هذا العالم ، وهو بمثابة مرآة يتجلى فيها الكون كله ، وهو السكائن الوحيد على هذه الارض القادر على تعقل ما حوله واعطائه معنى وهدفا ، وما أعمق المعنى في قوله تعالى : «وفي انفسكم افلا تبصرون» (سورة الذاريات ، آية ٢١) .

فليس غريبا أن يكرم الله الانسان لما فيه من هـذه المعـاني كلها ؛ وصدق الله اذ يقول : «ولقـد كرمنـا بني آدم» «سـورة الاسراء ، آية ٧٠» .

وليس غريبا كذلك أن يكون الانسان موضع العناية الالهية ليتمكن من استمرار الوجود على هذه الارض وليحقق رسالته .

والحقيقة أن من أقوى الدلائل على أن الانسان محور هذا الكون هو تلك الملاءمة التي يدركها بيسر تام بينه وبين العالم الذي يعيش فيه :

فالغـلاف الجوي المحيط بالارض يحميها من الشهب والنيـازك ، والهواء المحيط بالانسان ملائم لتنفسه ووظائف حياته ، ولا كذلك الطبقات العليا من الجو(٥٧) . ووجود الجبال يحفظ توازن الارض ، وتعاقب الليل والنهار فيه ملاءمة لنوم الانسـان ويقظته ، ونزول المطر من السماء هو بمقـدار ما ينبت به النبات وينتفع به الانسان والحيوان ، وعدم اختلاط مياه البحار بمياه الانهار العذبة هو من أجل بقاء النبات والحيوان والانسان ، ووجود الاشجار فيه من الفوائد للانسان ما لا يحصى ، وكذلك المعـادن في باطن الارض . وهكذا فان كل ما نشاهده من هذا العالم المرئي انما يوحي الينا بأنه لحياة ملائم الانسان من كل الوجوه ، يقول تعالى :

«أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضـحاها . والأرض بعـد ذلك دحاها . أخرج منهـا ماءها ومرعاها . والجبال أرسـاها . متاعا لكم ولأنعامكم» «سورة النـازعات ، آية ٢٧ — ٣٣» .

---

(٥٧) أشار القرآن الى عدم ملاءمة الطبقات العليا لتنفس الانسـان في قوله تعالى :

«ومن يرد أن يضله يجعل صـدره ضـيقا حرجا كأنمـا يصعد في السماء» «سـورة الانعـام ، آية ١٢٥» ، وهو أمر لم يكتشفه العلم الا حديثـا .

«أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد واحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج» «سورة ق ، آية ٦ — ١١» .

«الم نجعل الارض مهادا . والجبال اوتادا . وخلقناكم ازواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا . وجنات الفافا» «سورة النبا ، آية ٧ — ١٦» .

«وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» «سورة الرعد ، آية ٣ — ٤» .

«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا» «سورة الفرقان ، آية ٥٣» .

«وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الأرض و إنا على ذهاب به لقادرون فانشانا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون» «سورة المؤمنون ، آية ١٨ — ١٩» .

«افرايتم الماء الذى تشربون . انتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . ولو شاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . افرايتم النار التى تورون . انتم انشاتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم» «سورة الواقعة ، آية ٦٨ — ٧٤» .

ان هذه الموافقة بين العالم والانسان ، والتي تشير اليها هذه الآيات القرآنية ، وكثير غيرها في القرآن الكريم ، تظهرنا أيضا على أن العالم لم ينشأ اتفاقا كما يقول الماديون . وقد عبر ابن رشد عن هذا المعنى الاخير قائلا :

«كما أن الانسان اذا نظر الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس ، والغاية المطلوبة منه ، حتى يعترف انه لو وجدا بغير ذلك الشكل ، أو بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة ، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق كذلك الامر في العالم كله ، فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سبب الازمنة الاربعة وسبب الليل والنهار ، وسبب الامطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة أجزاء الارض ، ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الارض موافقة لسكنى الناس فيها ، وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وأنه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التي ههنا ، علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع اجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك عن قاصد قصده ، ومريد اراده ، وهو الله عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع»(٥٨)

ان نظرة ابن رشد الى ما في الكون من نظام يدل على الغائية على هذا النحو يدلك على علمية تفكيره . ولو عاش ابن رشد في عصرنا لعلم من اسرار الموجودات في الكون ، ومن موافقتها لوجود الانسان ما لم يكن ليخطر له على بال ، ولقوى دليله في العناية بأكثر مما هو عليه .

---

(٥٨) الكشف عن مناهج الادلة ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

ومن الطريف أن يعبر أحد العلماء المعاصرين ، هو فيل سوارتزن.
دروير ، عن نفس دليل ابن رشد الذى مر بك ، ولكن بلغة عصرنا ،
فيقول :

«كيف تفسر ذلك النظام والابداع الذى يسود هذا الكون ؟ هنالك
حلان ، فاما ان يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو ما لا
يتفق مع المنطق او الخبرة وما لا يتفق فى نفس الوقت مع قوانين الديناميكا
الحرارية التى يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم

«واما ان يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبير ، وهو الراى
الذى يقبله العقل والمنطق

«وهكذا ترى العلاقة بين النبات والتربة تشير الى حكمة الخالق
وتدل على بديع تدبيره

«وانا واثق ان الاخذ بهذا الراى سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا
الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة او الغرض وراء ظواهر الطبيعة
وقوانينها . ومعظم هؤلاء ممن يأخذون بالتفسيرات الميكانيكية ، ويظنون
ان النظريات التى يصلون اليها فى تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة
بعينها .

«ولكن هنالك من المسوغات ما يدعونا الى الاعتقاد ان ما وصلنا
اليه من التفسيرات والنظريات العلمية ليس الا تفسيرات مؤقتة ،
وليست لها صفة الاطلاق او الثبات .

«فاذا سلمنا بهذا الراى تضاءل خطر المعارض فى فرضية الكون
او وجود غاية منه ، فمما لا شك فيه ان هنالك حكمة وتصميما وراء كل
شىء ، سواء فى السماء التى فوقنا او الارض التى من تحتنا .

«ان انكار وجود المصمم والمبدع الاعظم يشبه فى تجافيه مع العقل
والمنطق ما يحدث عندما يبصر الانسان حقلا رائعا رائما يموج بنباتات القمح

الصفراء الجميلة ، ثم ينكر في نفس الوقت وجود الفلاح الذى زرعه والذى يسكن في البيت الذى يقوم بجوار الحقل!!» (٥٩) .

وهكذا تبدو الغائية في الكون وفى الانسان في أجلى مظاهرها لمام العقل العلمى المنصف الذى عرف حدوده وتخلى عن غروره بامكانياته .

وما اجل عبارة اينشتين : «ان الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ، ولكنه غير مؤهل للحياة» (٦٠) .

واذا كانت حياة الانسان على الارض قصيرة للغاية الا انها عظيمة الانجازات . فهل ينتهى كل هذا فجاة ويضيع كفاح الانسان كله على هذه الارض؟ وهل يستوى من بذل جهوده لخدمة الانسانية وتعمير الارض مع من افسد فيها؟ وهل يستوى العالم والجاهل والمحسن والمسىء؟

لو كان الامر كذلك ، اذن تكون حياة الانسان على الارض عبثا لا معنى له ، وضياعا لاحد له!

لقد علم الله حين خلق الانسان انه قد يحتجب بشهواته واهوائه عن رؤية الحقيقة فيقع فى وهم كوهم الدهرية حين قالوا : «ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سورة الجاثية ، آية ٢٤) .

ومن هنا بين الله تعالى للانسان ان ثمة وراء حياته هذه حياة اخرى سيحاسب فيها على اعماله ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، لا يستوى فيها العالم والجاهل ، ولا المؤمن والفاسق ، ولا الطيب والخبيث .

---

(٥٩) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .
(٦٠) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ، آيـــة ٩) .

«أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (ســـورة السجدة ، آيـــة ١٨) .

«قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث» (ســـورة المائدة ، آية ١٠٠) .

وهذا هو العدل الذى يطمئن اليه قلب الانسان ويجعل لحيـــاته معنى .

ان الايمان بحياة اخرى يدفع الانســـان ايضـــا الى العمل الصالح النافع لان هذا هو الطريق المؤكد الى السعادة .

لقد كتب عالم النفس وليم جيمس مقالا عنوانه (٦١) : «هل للحياة قيمة» قال فيه ان الحياة تستحق ان نحياها اذا اعتقدنا بأن هذا العالم ليس الا جزءا من الوجود ، وانه يوجد الى جوار عالمنا المحســـوس قوى روحية خالدة ، وتوجد هذه القوى فى عالم غير مرئى .

ان اعتقادنا فى هـــذا العالم غير المنظور هو مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للانســـان . ومعنى الخيرية ملاءمة عالمنا لحيـــاة خلقية ودينية ناجحة . ان الاعتقاد فى العالم غير المنظور يعطينا مجالا جديدا وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ونصـــاب بالعجز واليأس .. انتـــا حينئذ نشعر بالامل والسعادة حينما نرتمى فى أحضـــان ذلك العالم الفسيح .

لقد عبر وليم جيمس عن واقع الانسان حين جعل سعادته مرتبطـــة بايمانه بوجود عالم غيبى ، وهى سعادة لا يمكن ان يعرفهـــا حق المعرفة الا من عانى تجربة دينية حقيقية لا شكلية . ولا كذلك الانســـان الملحد

---

(٦١) محمود زيدان : وليم جيمس ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ١٥٦ .

فهو لا سبيل له الى تصور سعادة كهذه ، لانه اذا تفكر في مصيره يجد نفســه عاجزا بإزاء الموت الذى يضــع نهــاية اخيرة لوجــوده ، والذى لا مفر له منه فى نفس الوقت . وهذا يدفعه الى انواع من التحــديات العنيفة التى يحاول ان يؤكد بها ذاته . ومن بين صــور هــذه التحديات السعى الى هدم ما تعارف عليه المجتمع من قيم انسانية ، واقبال لا حد له على ملذات الحياة دون مبالاة بالغير ، وبطرق مشروعة وغير مشروعة . وهذا يفسر لنا لماذا يقترن الالحاد بالانانية المفرطة والحقــد والحســد والضغينة وما الى ذلك من شرور اخلاقية . وهذا امر طبيعى فما الذى يمكن ان يخشاه الملحد اذا كان يعتقــد انه لا قيم تلزمه ، ولا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب» .

ومن اطرف ما نجده فى الفكر الاسلامى ردا على الملحدين المنكرين للبعث ما يورده الامام الغزالى (١٦) من محاورة بين الامام على رضى الله عنه واحد الملحدين ، قائلا :

«قال على كرم الله وجهــــه لبعض الملحــــدين : ان كان ما قلته (من انه لا بعث ولا حساب) حقا ، فقد تخلصت وتخلصنا .

«وان كان ما قلناه (من وجود البعث والحساب) حقا فقد تخلصنا وهلكت» .

ويعقب الامام الغزالى على هذا قائلا : وما قال (الامام على) هذا عن شك منه فى الآخرة ، ولكنه كلم الملحد على قدر عقله !» .

ويعبر الامام الغزالى عن هذه الفكرة ذاتها قائلا : «ليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الآخر واثبت ثوابا وعقابا .. فان صدق اولئك العقلاء فى امر الآخــرة ، وكذب هو ، فانه يبقى فى عــذاب ابدى . وان كذبوا هم وصدق هو فلن يفوته الا بعض شهواته الدنيا الفانية» (١٢) .

---

(١٦) انظر احياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ وما بعدها .

(١٢) هذه الفكرة هى عين تلك التى عبر عنها بعد الغزالى بقرون الفيلسوف الفرنسى باسكال وتعرف عنده بفكرة الرهان ، وذلك فى كتابه «الخواطــــر» .

ومن ثم فان ما هو اكثر ضمانا بالنسبة للانسان ان يعتقد بالبعث اذا نظر الى مصيره نظرة عقلية واعية :

ولذلك يبين القرآن لنا ان حياة الانسان مع انكار البعث تكون عبثا لا معنى له ، ولابد من وجود حياة اخرى وراء هذه الحياة اكمل وابقى يلقى فيها الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال ، فحياتنا هذه الدنيوية ليست غاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة لغاية ابعد . يقول تعالى :

«افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون» (سورة المؤمنون آيـــة ١١٥) .

«ايحسب الانسان ان يترك سدى» (سورة القيامة ، آية ٣٦) .

يا قوم انما هـــذه الحيـــاة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار« (سورة غافر ، آية ٣٩) .

«وما هذه الحياة الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهى الحيـــوان لو كانوا يعلمون» (سورة العنكبوت ، آية ٦٤) .

ان الانسان اذا لم ير لحياته معنى او غاية وقع حتما فى التشـــاؤم الشديد ، وتجلل من كل القيم ، وتخلى عن انسانيته او المعنى الذى كرمه الله من اجله ، واصبح لا يعقل شيئا مما حوله ، ولا يبدو له اى امر من امور حياته معقولا (٦٤) .

---

(٦٤) هذا ما تشير اليه مثلا مسرحيات الكاتب المسرحى المعاصر الذى حاز شهرة كبيرة فى اوروبا صمويل بيكيت (١٩٠٦ —) وهو يركز فى مسرحياته على ان حياة الانسان لا معنى لها ولا تبدو معقولة . ومن هنا عرف مسرحه بالمسرح اللامعقول . وهذا النوع من الكتاب يعكس لنا الى اى حد تعـــانى الحضـــارة الاوروبية من ازمة قيم شـــديدة قـــد تعجل بانهيارها .

لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة كوجودية سارتر الى الانسان على انه كائن حائر ، وانه وجود يحمل العدم في صميمه . بل ان وجود الانسان عند سارتر مرادف للقلق الى الحد الذى يجعله يقول : «نحن قلق» (٦٥) . (Nous soumes angoisse)

والانسان كما يقول سارتر محكوم عليه في كل لحظة أن يخترع الانسان ، فما الانسان الا ما يصنع نفسه ، وما يريد لنفسه ، وما يتصور نفسه بعد الوجود . انه هو وحده خالق قيمه ومعاييره ، يقول سارتر «ويترتب على ذلك ان حريتى هى الاساس الوحيد للقيم ، وليس ثمة شيء مطلقا يمكنه أن يلزمنى باصطناع هذه القيمة او تلك» (٦٦) .

ان الحرية عند سارتر ليست سوى ارادتنا واهوائنا (٦٧) ، وحياتنا لا شيء غير العبث والضياع والانسان عاطفة لا فائدة منها . (٦٨)

وعلى هذا النحو تتصور بعض الفلسفات المعاصرة حقيقة الانسان فتسلبه كل معنى يمكن ان يكرم من اجله .

وسيظل انسان العصر فى هوة الضياع اذا لم يتجاوز القلق الى الايمان ، وستزداد مشكلاته حدة اذا ظل يمارس حرية كتلك التى يدعوا اليها سارتر ، وهى حرية من شأنها ان تؤدى به الى التردى فى الهوة السحيقة التى يريد سارتر ان يؤول اليها كل وجود انسانى ، وهى هوة العدم .

وحين يركز فلاسفة هذا العصر اهتمامهم على ما يسمونه «لمأساة الانسان» فهم ينطلقون من الالحاد . والذى ينطلق من الالحاد «كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» (سورة الانعام ، آية ١٢٠) .

«ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (سورة النور ، آية ٤٠) .

ان كثيرا من فلسفات العصر اذ تنتهى الى العدمية (Nihilism) لا تمثل الا خواء فكريا كفيلا بالقضاء على كل ما هو عظيم من انجازات الانسان .

---

65 L'être et le néant, P. 81
66 Ibid, P. 78
67 Ibid P. 520
68 Ibid, P. 708

آداب الانسان فی علاقته بالکون

واذا كان ثمة في عصرنا هذا فلسفات عدمية لا ترى لحياة الانسان معنى ، فانه توجد فيه ايضا فلسفات اخرى تصطبغ في ظاهرها بصبغة العلم ولا ترى في الوجود الا المادة ، وتذهب الى ان العالم المادى الذى ندركه بحواسنا هو الحقيقة الوحيدة ، وان المادة ليست من نتاج العقل بل ان العقل ما هو الا اسمى نتاج للمادة .

ومثل هذه الفلسفات الاخيرة انما تولد في الانسان غرورا لا حد له بنفسه وبالعلم وانجازاته . وما تراه الان في عالمنا المعاصر من استخدام العلم والتكنولوجيا في اثارة الحروب والتدمير ، انما هو مظهر من مظاهر غرور الانسان المعاصر بالقوة المادية وحدها وابتعاده عن القيم الانسانية التي يمكن ان تحد من شرور تلك الحروب وويلاتها .

ولا يمكن لانسان العصر ان يستقر نفسيا ويأخذ وجهته الصحيحة نحو انجاز رسالته على الارض الا اذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره ، ذلك أن الكون كله شأن من شئون الله تعالى : «ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور» (سورة آل عمران ، آية ١٠٩) . فهو تعالى خالق الكون بما فيه الانسان ، وهو الذى ركب العقل في الانسان ليعمر به الارض لا ليدمرها ، وليعرف به خالقه لا ليلحد وحاول ان تضع الانسان في اطار الكون كله وقوانينه الحتمية — لا في اطار قدرته الخاصة المحدودة — لترى ان ليس للانسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته ، لان هذا من شأن خالق الاشياء جميعا ومدبرها وهو الله . وتأمل بعد ذلك عمق المعنى فيما ورد في القرآن الكريم على لسان ابراهيم ردا على احد المنكرين لوجود الله عن طريق تعريفه بعجزه في نطاق ذلك الاطار الكوني الذى اشرنا اليه .

«الم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا احيى واميت قال ابراهم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين» (سورة البقرة ، آية ٢٥٨) .

ومن الطبيعي اذا كان الانسان عاجزا بالنسبة لما يجرى في الكون ان يكون عاجزا بالنسبة لخالق الكون ، يقول تعالى منبها افراد الانسان : «وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء» (سورة العنكبوت ، آية ٢٢) .

ولعل معنى هذه الآية لم يتضح تماما الا بعد نجاح الانسان في الهبوط على سطح القمر ، وربما تساءل الانسان قبل ذلك عن معنى قوله تعالى : « ولا في السماء» اذ ما شأن الانسان بالسماء؟ وكيف يكون غير معجز لله فيها ، وهو كائن من شأنه ان يكون دائما على الارض؟

ومن اطرف ما وقفت عليه في تفسير هذه الآية عبارات للامام فخر الدين الرازى يوضح فيها ان الانسان ، لو استطاع ان يصل يوما ما الى السماء ، وهو جائز فانه لن يكون معجزا لله في هذه الحالة ايضا ، فلم يطرح من ذهنه امكانية وصول الانسان الى الفضاء الخارجي بما فيه من اجرام ، وقد كان ذلك في عصره ضربا من ضروب الخيال ، مع انه اصبح في عصرنا حقيقة واقعة . يقول الرازى ما نصه : «لما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء «يعني بالهرب أو الثبات» أى لا تخرجون من قبضة قدرة الله ، فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات» .. وقدم (تعالى) الارض على السماء لان هربهم المكن في الارض ، ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك ، فيكون لهم صعود في السماء» (٦٩) .

ان تلك الآية ، وكثير غيرها في القرآن انما تنبه الانسان الى خلق التواضع ، فمهما تقدم العلم ، ومهما سيطر الانسان على بعض جوانب الطبيعة ، فلا ينبغي أن يغتر بما وصل اليه ، وانما عليه ان يتذكر دائما ان ثمة قوة اكبر من قوته وهي قوة الخالق . وان الكون أوسع من أن يحيط به عقله المحدود .

لقد سأل صحفي امريكي يدعى «فيرك» العالم المشهور اينشتين قبيل وفاته (٧٠) عن موضوع الايمان بالله فرد عليه اينشتين قائلا :

---

(٦٩) انظر التفسير الكبير ، في تفسيره للاية ٢٢ من سورة العنكبوت .

(٧٠) اوردنا نص هذا الحوار وعلقنا عليه في مجموعة بحوث لنا نشرتها وزارة الاوقاف بالجمهورية العربية المتحدة بعنوان «محاضرات في علوم القرآن الكريم والعقيدة والاخلاق والتصوف والفلسفة» القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ — ٢٤ . وانظر ايضا كتاب الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا عن اينشتين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٤١ وما بعدها .

اما انا فلست ملحدا ، ولا ادري ما اذا كان يصح في القول بأني من انصار مذهب وحدة الوجود ، فالمسألة اوسع نطاقا من عقولنا المحدودة (لاحظ دلالة اعتراف اينشتين هنا بأن العقل البشري محدود مع أن عقليته تعد اكبر عقلية علمية في القرن العشرين) .

فعاد فيرك ليقول له : ان الرجل الذي يكتشف أن الزمان والمكان منحنيان ، ويحبس الطاقة في معادلة واحدة جدير به الا يهوله الوقوف في وجه غير المحدود .

ويرد عليه اينشتين قائلا : اسمح لي ان اجيب بأن اضرب مثـلا . ان العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجـز عن الاحاطة بالكون . فنحن اشبه الاشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها ، وهي مكتوبة بلغات كثيرة . فالطفل يعلم انه لابد ان يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ، ولكنه لا يعرف من كتبها ، ولا كيف كانت كتابته لهـا ، وهو لا يفهم اللغـات التي قد كتبت بهـا .

ثم ان الطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة في ترتيب الكتب ونظاما خفيا لا يدركه هو ، ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، وهـذا على ما ارى هو موقف العقل الانساني من الله مهما بلغ ذلك العقل من السمو والعظمة والتثقيف المثالي .

وعاد الصحفي الامريكي ليسأله مرة أخرى :

اليس في وسع العقل ، حتى اصحاب العقول العظيمة ، ان يحل لنـا هذا اللغز ؟

فكانت اجابة اينشتين كما يلي :

نرى كونا بديع الترتيب خاضعا لنواميس معينة . ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الابهام ، وان عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التي تهيمن على مجاميع النجوم !

من هذا الحوار ذى المغزى العميق يتبين لك ان اينشتين فى موقفه من مشكلة الكون وخالقه لم يخرج عن الادب الذى رسمه لنا القرآن الكريم فالقرآن قد حثنا على النظر فى الكون وقوانينه لكى نعرف الله بآثاره وصفاته ولكن مع التواضع التام بازاء الخالق تعالى ، لان عقولنا محدودة ولن تستطيع ان تدرك كنهه تعالى . قال تعالى : «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» (سورة الانعام ، آية ١٠٣) .

ولعلك تدرك ههنا ايضا عمق المعنى فيما حكى عن الجنيد أحد كبار ائمة التصوف فى الاسلام ، قال : «اشرف كلمة فى التوحيد قول ابى بكر (الصديق) : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا العجز عن معرفته» (٧١) .

ان الانسان اذا استطاع ان يجمع بين العلم بالكون والتصوف من حيث هو قيم اخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثالية تهدف دائما الى النفاذ الى الحقيقة ، فانه يصل الى ذروة الكمال .

والتصوف الحقيقى علاج للفرد وللمجتمع ، فهو يجنب الفرد شرورا كثيرة على راسها الغرور بنفسه وبعلمه وبامكانياته ، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية نوعا من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح .

لقد بدات مجتمعاتنا ، فى زحمة الحياة المادية تفقد مقومات وجودها الروحى ، واصبحت فى عصر سيادة القوة المادية وحدها تتشكك فى القيم الانسانية الرفيعة ، هل لها وجود ام انها وهم من الاوهام! لقد اصبح الناس فى عصرنا — اللهم الا قلة واعيد — ينظرون الى كل شيء على ضوء المادة ويقيسون كل شيء بمقياس الحس .

ويقيننا ان الناس لو انصرفوا قليلا عما شغلتهم به الدنيا الى تدبر

---

(٧١) الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ .

ما في الاسلام من المثل الروحية ، ولو آمنوا بان وراء المادة والحس عالما آخر له روعته وجلاله ، وله قيمة ومعاييره لغيروا من حكمهم على الاشياء ولوجدوا الراحة النفسية بعد العنـــاء ، ولاقبلوا على حيـــاتهم في تفاؤل وابتسام ، ولاندفعوا الى العمل المثمر في همة وثبات .

ان التصوف منهج كامل في الحياة ، والصـــوفي المحقق هو الذي لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحيـــاة المجتمع الذي يعيش فيه ، بل هو الذي يستعين بحيـــاة التعبد على حيـــاة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح ، والتصوف بهذا المعنى «فلسفة ايجـــابية» تضفي على حيـــاة الانسان معنى ساميا .

لهذا لا ينبغي ان يظن بان الصوفية قوم سلبيون يصرفون النـــاس عن الكون المادي وعلومه الى الاغراق في العبادة والانعزالية عن المجتمع فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الاسلام ، فالتصوف الاســـلامي يعبر عن قيم الاسلام ، والاســـلام دين جامع بين العمل الدنيوي والعمل الاخروي ، ولا يصرف الناس عن الاخـــذ باسباب الدنيا وبخيراتها «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعبادة والطيبات من الرزق» (سورة الاعراف ، آيـــة ٣٢) .

ان نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ذات مغزى اخلاقي بعيد ، فهم يريدون ان يبينوا للناس ان الكون مجرد شأن من شئون الله ، ومصيره حتما الى الفناء ، فلا ينبغي على الانسان العاقل ان يتعلق نفسيا بالكون الى حد عبادته ، يقول تعالى :

«كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (ســـورة الرحمن ، آية ٢٦ ـــ ٢٧) .

وكذلك لا ينبغي على الانســـــان ان يغتر بنفســـه وبعلمه ، يقول تعـــالى :

«ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبـــال طولا» (سورة الاسراء ، آية ٣٧) .

«وما اوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

ولابد من تطهير القلب عن اخلاقيـــاته الذميمة ، وعن التعلق بكل الاغيار العدمية (جمع غير ، ويشير بها الصوفية الى كل ما ســوى الله) او الاكوان ، لتشرق في هـذا القلب المعرفة الحقيقة بالله ، والى ذلك المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى بقوله : «كيف يشرق قلب صـور الاكوان منطبعة في مرآته؟!»

«ام كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته؟ ام كيف يطمع ان يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنـابة غفلاته ؟ ام كيف يرجو ان يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته ؟!» (٧٢) .

لابد اذن من ان يتفكر الانسان فيما يشاهده في الاكوان من دلالة على وجود الله ، يقول ابن عطاء الله : «الفكرة سير القلب في ميـادين الاغيـــار» (٧٣) .

ويوضح لنا ابن عباد الرندى معنى هذه الحكمة قائلا :

«الفكرة التي الزمها العبد وحض عليها هي سير القلب في ميادين الاغيار فقط ، وهي مخلوقات الله ومصنوعاته .

«واما الفكرة في ذات الله فلا سبيل اليها ، يعتبر المتفـكرون في آياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته» .

«روى عن ابن عبـاس رضى الله عنهمـا ان رسول الله (ص) ابصر قوما ، فقال ، مالكم؟ فقالوا : نتفكر في الخالق : قال ، تفكروا في خلقه ، ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره» (٧٤) .

---

(٧٢) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٢٠ .
(٧٣) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ص ٩٥ .
(٧٤) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

واذا كان الماديون في عصرنا هذا وفي كل عصر لا يعتدون الا بالحس ولا يؤمنون الا بالعالم المادي ، فان الصوفية على العكس من ذلك يرون ان العالم المادي ليس غاية في ذاته وانما وراءه علة صانعة حكيمة مدبرة . صحيح ان الله تعالى قد أباح للانسان ان يشتغل بالبحث في المكونات ، أو بالعلم المادي ، ولكنه امره في نفس الوقت بعدم الوقوف عند حد المكونات ، وانما عليه ان يتجاوزها الى ما وراءها من الاسرار ، وقد ضمن ابن عطاء الله هذا المعنى في قوله «اباح لك ان تنظر ما في المكونات ، وما اذن لك ان تقف مع ذوات المكونات» «قل انظروا ماذا في السماوات» (سورة يونس ، آية ١٠١) . فتح باب الافهام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام» (٧٥) .

ان «اشبه شيء بوجود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصيرة وجود الظلال ، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم . واذا ثبتت ظلية الاثار «اي الكائنات» لم تنسخ احدية المؤثر (الله) ، اذ الشيء انما يشفع بمثله ، ويضم الى شكله» (٧٦) .

كل ما في الكون اذن ناطق بوحدانية الله ، يقول ابن الفارض في «التائية الكبرى» .

والسنة الاكوان ان كنت واعيا
شهود بتوحيدي بحال فصيحة

وكيف يكون للكائنات وجود حقيقي مع الله و «الكائنات لا يثبت لها رتبة الوجود المطلق ، لأن الوجود الحق هو لله وله لا حدية . انما للعوالم الوجود من حيث ما اثبت لها ، فاعلم ان من الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه» (٧٧) .

---

(٧٥) شرح الرندي على الحكم ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٧٦) لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١١٤ — ١١٥ .
(٧٧) لطائف المنن ، ص ١١٤ .

ومضى بعض الصوفية من اصحاب وحدة الوجود (Pantheism) كابن عربى الى حد وصف الكون بانه محض خيال اذا نظرنا اليه فى ذاته ، اما اذا نظرنا اليه من حيث هو مظهر لتجلى الحق باسمائه الالهية ، فانه يصبح حقيقة ، والى هذا يشير بقوله :

انمـــا الكون خيـــــال
وهـــو حق فى الحقيقـــــة

والذى يفهم هـــــــذا
حـــاز اسرار الطريقـــة (٧٨)

ان هذه الآراء ليست بعيدة عن روح العلم الحديث كما قد يظن لاول وهلة ، فان صورة الكون بعد نظرية اينشتين لم تعد تختلف كثيرا عن صورته لدى الصوفية ، ما دامت الموجودات فيه ذرات ، والذرات تتحلل الى اشعاعات ، وما نحسه من ثبات الموجودات وصلابتها انما هو امر راجع الى ادراكنا فقط وليس الى حقائقها .

ولولا العلة التى شاءت ان تائتلف خيوط احداث هذه الموجودات لتبرز الى العالم فى صورتها المدركة لنا ، لما كان لهذه الموجودات وجود ولذلك يقول ابن عطاء الله : «لولا ظهوره (أى الله) فى الكونات ما وقع عليها وجود ابصار ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته» (٧٩) .

وما اعمق المعنى ايضا فى قوله :

«الكون كله ظلمة ، وانما اناره ظهور الحق فيه ، فمن ، رأى الكون ولم يشهده فيه او عنده او قبله او بعده ، فقد اعوزه وجود الانوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» (٨٠) .

---

(٧٨) ابن عربى : نصوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليق الدكتور ابو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

(٧٩) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
(٨٠) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٢١ .

وقد كشف ابن عباد الرندى عن الاغوار البعيدة لمعانى هذه الحكمة وما تتضمنه من الاشارات الى اختلاف مناهج العارفين فى نظرتهم الى الكون ومعرفتهم بخالقه ، اذ يقول :

«ثم اختلفت احوال الناس ههنا :

«فمنهم من لم يشـــاهد الا الاكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكون ، هذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب الآثار الكائنات (كأنى به يشير الى الحسيين من علماء عصرنا وفلاسفته) .

ومنهم من لم يحجب بالاكوان عن المكون ، ثم هم فى مشاهدتهم اياه فـــرق :

«فمنهم من شـــاهد المكون قبل الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار (يشير هنا الى بعض الصوفية الذين يستدلون بالله على الكائنات ، ومن غريب الاتفاق ان يكون هـــذا هو نفس اتجاه الفيلســـوف الفرنسى ديكارت فى سيره من اثبات وجود الله الى اثبات حقيقة العالم الخـــارجى) .

«ومنهم من شـــــاهده (أى المكون) بعد الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالاثار على المؤثر (يشير هنا الى المتكلمين والفلاسفة ومن نحـــا نحوهم فى اثبات وجود الله بواسطة الاســـتدلال العقلى اذ يصعدون من الكائنات الى مكونها) .

«ومنهم من شـــاهده مع الاكوان . والمعية ههنا اما معية إتصـــال ، وهى شهوده فى الاكوان ، واما معية انفصال وهى شهوده عند الاكوان .

«وهـــذه الظروف (المذكورة فى حكمة ابن عطاء الله) ليست بزمانية ولا مكانية ، لان الزمان والمكان من جملة الاكوان» (٨١) .

---

(٨١) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢١ .

ان نظرة بعض الصوفية الى الكون على هذا النحو تلتقى مع العلم . فهم يريدون القول بان الكون ، فى ابعاده الشاسعة التى لا يحيط بها عقل الانسان ، لا ينبغى ان يكون خاضعا لتصوراتنا نحن عن الزمان والمكان لانهما — على حد تعبير الرندى — من جملة الاكوان ، والاكوان لا توصف بالوجود الحقيقى . فالزمان والمكان اذن امران نسبيان لا وجود لهما فى الحقيقة الا من حيث ما يدرك الانسان بهما ما حوله من العالم المحسوس وموجوداته .

خلاصة القول ان الصوفية يعتبرون الوقوف مع موجودات هذا الكون مع الغفلة عن ادراك المكون معا لا يليق بالانسان ، لان كل ما فى هذا الكون ناطق بوجوده تعالى ، وليس ثمة حجاب بين الانسان والله ، لان الله متجل فى الموجودات على اختلافها و «كيف يحتجب الحق بشىء ، والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر؟!» (٨٢)

الحجاب اذن فينا نحن ، فى شهواتنا واهوائنا ، ولو تخلصنا منهما لبدت الحقيقة واضحة كشمس النهار ، وبهذا ايضا تتحقق حريتنا الجديرة بنا . وما أعمق المعنى فيما يقوله ابن عطاء الله :

«انت مع الاكوان مالم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الاكوان معك» (٨٣) .

هناك اذن «فرق ما بين كونك مع الاكوان ، وكون الاكوان معك .

«فان كونك مع الاكوان يقتضى تقييدك بها ، وحاجتك اليها ، فانت بذلك عبد لها ، ثم هى خاذلتك ومسلمتك لحوج ما تكون اليها ، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون .

«وكون الاكوان معك يقتضى ملكك لها ، واستغناك عنها (هذا هو المعنى الحقيقى للزهد فى الاسلام ، وهو ان تملك الشىء ولا تكون له عبدا فى نفس الوقت) ، فانت حينئذ حر عنها ، وهى محتاجة اليك وخادمة لك» (٨٤) .

---

(٨٢) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٥٠ .
(٨٣) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
(٨٤) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

وقد يتبادر الى الذهن ان الصوفية يهونون من شان الانسان ومكانته في الكون ، كما يزهدونه في الكون نفسه . وليس ثمة شيء ابعد عن الحقيقة من هذا .

وكيف يزهد الصوفية الانسان في الكون ، والكون مظهر تجليات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير وما اليها؟

وكيف يهون الصوفية من شان الانسان وهم يعلمون انه خليفة الله على هذه الارض؟

لابد ان يكون وراء كلامهم عن الكون والانسان غايات بعيدة ، فهم يريدون للانسان في علاقته بالكون ان يكون خاشعا لقيم اخلاقية معينة ، فلا يتعالى ولا يطغى ، ولا يغتر بعلمه ولا يعجب بامكانياته ، انهم كذلك يريدون له ان يتحرر من عبودية الركون الى العالم المحسوس وملذاته لينطلق الى فضاء المعرفة بخالقه .

انهم كاطباء النفوس ، يعلمون الكثير عن نواحي الضعف الخلقي في الانسان ، فيريدون علاجها وتلافي اسبابها ، لما يترتب عليها من شرور مدمرة تلحق بالانسان ذاته وبمجتمعه ، الم يقل الله تعالى :

«وخلق الانسان ضعيفا» (سورة النساء ، آية ٢٨) .

«وكان الانسان عجولا» (سورة الاسراء ، آية ١١) .

«وكان الانسان أكثر شيء جدلا» (سورة الكهف ، آية ٥٤) .

«كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى» (سورة العلق ، آية ٦ ــ ٧)

وهذه الآيات انما تصور الانسان حين ينحرف في سيره عن الوجهة التي يريدها الله له .

اما الانسان من حيث ما يحقق انسانيته بالعلم وقيم الاخلاق فلا حدود لارتقائه وتقدمه .

انه صورة مصغرة للكون كله جـامعة لاسراره (٨٥) ، اليس هو الكائن الوحيد القادر على تصفح موجودات هذا العالم ومعرفة اسرارها بمـا اودعه الله فيه من الاستعداد لذلك؟

ان الكون المادى وان وسع الانسـان من حيث جسمه المادى الا انه لا يسعه من حيث حقيقته الروحانية ، يقول ابن عطاء الله :

«انما وسـعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحـانيتك» (٨٦) .

«جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وانك جوهرة تنطوى عليك اصداف مكوناته» (٨٧)

وليعذرنا القارىء اذا كنا قد اطلنـا الحديث بعض الشىء عن نظـرة صوفية الاسـلام الى الكون والانسان ، فلقد كان هـدفنا ان نظهره على ما هى الفكر الاسلامى من نظرة عميقة واعية الى الكون والانسان تستند الى قيم خلقية رفيعة ، وتنطوى على نزعة مثالية تهدف الى النفاذ الى الحقيقة العليا ، وهى فى نفس الوقت من الزم ما يكون لمجتمعاتنا فى هذه المرحلة من تطورها لتحد من غلواء المذاهب المادية ، وشطط المذاهب العبثية التى افتتن بها البعض فى عصرنا .

ومن الخطأ فى راينا ان نعزل العلم من التصوف او القيم الاخلاقيـة بدعوى الموضوعية ، فما الذى يمنع من أن يكون العالم بالكون وموجوداته

---

(٨٥) لذلك يسمى بعض القـدماء الانسـان بالعـالم الاصغر . يقول التهانوى : «وفى اسرار الفاتحة قد يقسم العـالم الى الكبير والصغير ، واختلف فى تفسيرهما ، فقال بعضهم : العـالم الكبير هو مـا فوق السماوات ، والصغير هو ما تحتهـا ، وقيل : الكبير ملكوت السـماوات والارض وما بينهما ، والعالم الصغير هو الانسان» ، كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «العالم» .

(٨٦) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٨٧) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

مؤمنا بالله ، ومتخلقا بكل خلق رفيع؟ الا يكون هذا ضمانا لعدم انحراف العلم فى عصرنا عن مساره الطبيعى ، وهو نفع الانسان ، الى استخدامه فى شرور لا يعلم الا الله وحده ماذا سيكون مداها فى المستقبل؟

ان الامتزاج الحقيقى بين الصوفى ورجل العلم هو — فى رأى الفيلسوف المعاصر برتراند رسل (١) وليس فى رأينا وحدنا — قمة السمو ، وهو شىء يمكن تحققه فى عالم الفكر .

وتأمل فيما يقوله رسل ايضا : «اذا كانت لدينا الرؤية الصوفية للعالم ، وما يتجلى فيه من المرائى ، على أنه يكتسى بنور سماوى ، فانه يمكن القول بوجود خير اسمى اعلى من ذلك الذى يتطلبه الفعل ، وان ذلك الخير يغمر العالم كله . وهذا الحب الكلى لكل ما يوجد ، ذو اهمية تسوى من حيث السلوك والسعادة فى الحياة ، ويعطى للعاطفة الصوفية قيمة لا يمكن تقديرها؟ (٨٨) .

• • •

---

(٨٨) انظر بحث برتراند رسل (Mysticism and logic)
وقد نشرنا ملخصة مع دراسة تحليلية له فى بحث لنا نشر بمجلة «الفكر المعاصر» القاهرة ، العدد ٣٤ ، ديسمبر ١٩٦٧ ، وجدير بالذكر ان العدد كله عن رسل وفلسفته .

ثبت باهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، القاهره ١٣١٧ هـ .

٣ ـ ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٤ ـ ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة فى بيان عقائد الملة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٥ ـ ابن عباد الرندي : شرح الحكم العطائية المعروف بغيث المواهب العلية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٦ ـ ابن عربي : فصوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ م .

٧ ـ ابن عطاء الله السكندرى . التنوير فى اسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

٨ ـ ابن عطاء الله السكندرى : الحكم ، مع شرح الرندى ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٩ ـ ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

١٠ ـ ابو الوفا التفتازاني : ابن عطاء الله السكندرى ، وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩

١١ ـــ ابو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشـــكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٢ ـــ التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكتا ١٨٦٢ هـ .

١٣ ـــ الجرجانى : التعريفات ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .

١٤ ـــ الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم ، بتحقيق محمد ناصر الدين الألبـــانى ، سلسلة احيـــاء التراث الاســـــلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاســـــلامية بدولة الكويت الكويت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م .

١٥ ـــ دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهـــادى ابو ريدة ، الطبعة الثـــالثة ، القـــاهرة ١٩٥٤ م .

١٦ ـــ الشهرستانى : الملل والنحل ، بهـــامش الفصل لابن حـــــزم ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

١٧ ـــ الشيبانى : تيسير الوصـــول الى علم الاصـــول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

١٨ ـــ صاعد الاندلسى : طبقات الامم ، نشر المكتبة الحيـــدرية بالنجف الاشرف ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

١٩ ـــ الصنعانى (بدر الدين) : ترجيح اســـاليب القرآن على اساليب اليونان القاهرة ١٩٣١ م .

٢٠ ـــ الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٢١ ـــ الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .

٢٢ ـــ الغزالى : المستصفى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٢٣ ـــ فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٢٤ ـــ الكندى : الرســـائل ، نشر وتحقيق وتعليق الاســـتاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٢٥ ـــ الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين ، نشرها جون كلوفر مونسما ، نشر دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

٢٦ ـــ شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية لشارح مجهول (يرجح انه الاذرعى الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٦ هـ) المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ .

بعض المراجع الاجنبية الوارد ذكرها فى البحث :

(1) Descartes (R) : Discours de la méthode, ed joseph Gibert.
(2) Descartes (R) : Les Principes de la Philosophie ed. joseph Gibert.
(3) Lalande (A) : Vocalulaire technique et critique de la philosophie, Paris 1956.
(4) Malbranche : Entretiens métaphysiques, ed. Fontana.
(5) Russell (B) : mysticism and logic. London 1914. in Selected Papers. The modern Library, 137. New York, 1927.
(6) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant 1966 Edition gallimard, 1943, Offset—Aubin à Poitiers (Vienne). 1965.

To: www.al-mostafa.com